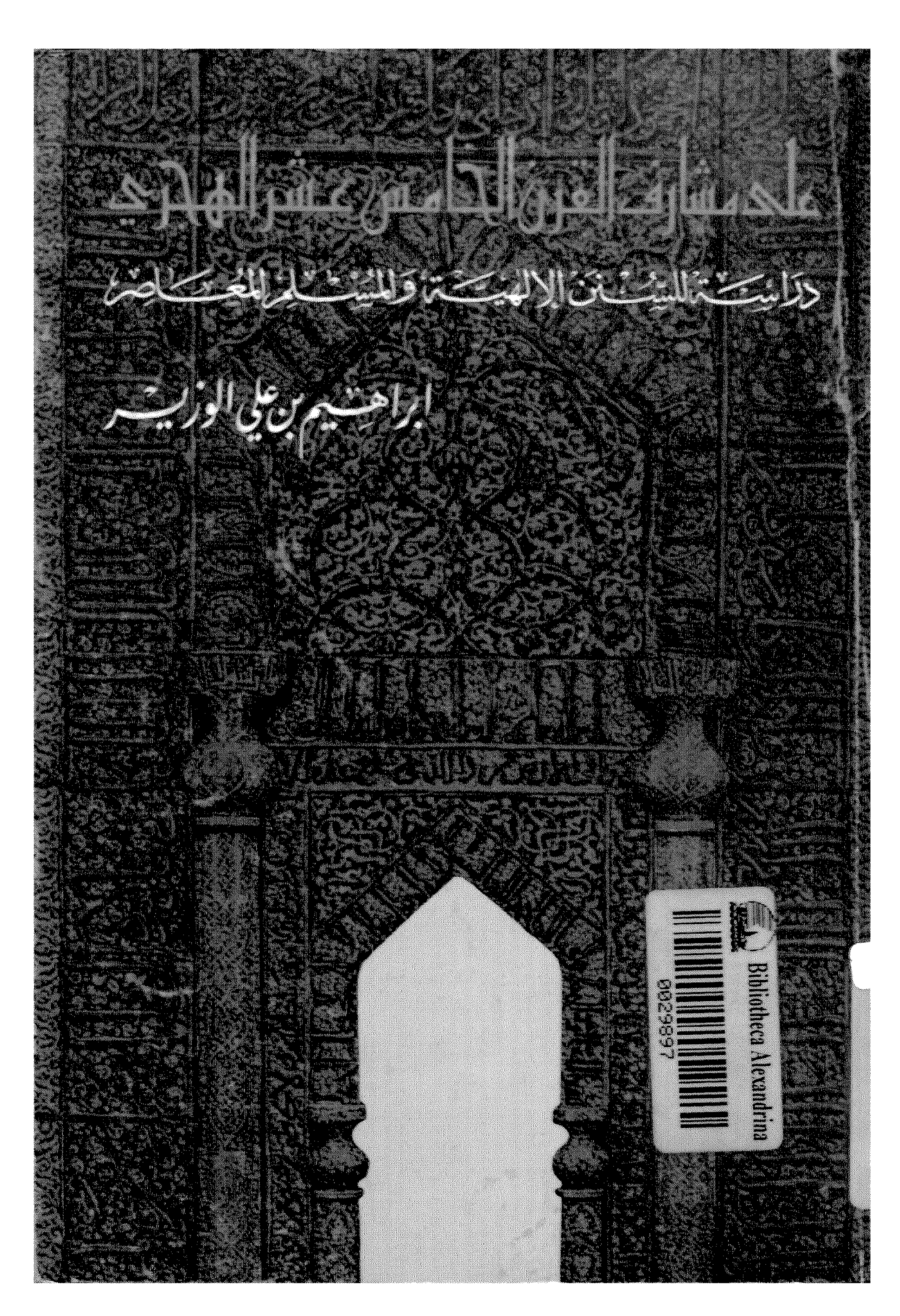

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر
ابراهيم بن علي الوزير

حضارة القرن الخامس عشر الهجري

الطبعة الرابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري

دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر

ابراهيم بن علي الوزير

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الأجيال المسلمة في القرن الخامس عشر الهجري الذي تدق ساعته الكونية مؤذنة بقدومه .. هذه الأجيال التي تمضي نحو المستقبل عسى أن تصغي إلى دروس التاريخ وعبره وعظاته وقوارعه فتستخرج من معطياته الضوء وتتجنب العثار ومزالق الطريق ، تحت وهج تجارب الواقع الذي عاشته الأمة .. حقائق ماثلة لا تقبل التمويه والجدل .

وإلى أولئك الذين أرادوا لأمتهم أن تستأنف مسيرة الشورى في الأمر والعدل في المال .. والخير في الأرض .. وأن يكون الفهم والعقل والعمل « أدوات » الفقه لسنن الله .. كونية وتشريعية ..

أهدي هذا الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(سورة يوسف ـ آية ١٠٨)

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(سورة فاطر ـ آية ٤٣)

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة ـ آية ٢٥٦)

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(سورة البقرة ـ آية ٢٥٧)

محتويات الكتاب

صفحة

السّنن

السنن هي : مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون ، والتي يستفيد منها الكائن الإنساني بما يؤهله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (١)

فيسخِّرها ويستفيد منها ، انها نظم هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه المسيرة له وفق ما أراده الخالق المبدع جل شأنه ، مجالها الواسع : السموات والأرض ، والحياة والكون .. والإنسان ...

والمسلم مدعو إلى ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً :

﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢)

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣)

وهو قد استجاب لتلك الدعوة الموقظة .. وبعد أن وضع أسس العلم لفهم ذلك أخلد إلى الأرض فاستلم الزمام غيره .. !

وفي نطاق دعوته إلى اليقظة المبصرة من نوم طال ليله .. نهتف به أن يمضي معنا في رحلة فكرية .. جناحاها : «عقل» و «علم» .. وسماؤها نور الوحي وآفاقه .. ونهيب به كذلك وهو يودع قرناً طواه التاريخ ، ويستقبل قرناً جديداً سوف يسجل ما يُملىٰ عليه .. أن يتعامل مع السنن لا مع الأمنيات المخدرة .. فالعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني (٤) ..

وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

السنن والمسلم المعاصر

تشرف أمتنا الإسلامية على بلوغ قمة القرن الرابع عشر الهجري في بضع سنين* مودعة بذلك قرناً حافلاً بالعظيم من المآسي والعظات والعبر القارعة والطامة والصاخة !! مستقبلة حينئذ مشارف بزوغ فجر القرن الخامس عشر الذي يطرق أبواب التاريخ ليرسم ما تملي عليه أمة الإسلام ..

وفي دورات التاريخ الموحية والموقظة التي تشق دروب «عالم الغيب» إلى «عالم الشهادة» .. أو من حيّز القوة إلى حيز «**الفعل**» ينبغي .. بل يجب أن يكون لمفكري المسلمين وعلمائهم وفقهائهم ومؤرخيهم وحكمائهم وقفات دراسية جادة يستخلصون فيها «دروس التاريخ البليغة» ومنطق «السنن الآلهية» السارية في الكون .. فويل لمن لم يقرأ «التاريخ» ، وويل لمن جهل «نواميس الكون» وعبر الحق ، وعظات الواقع الماثل للأسماع والأبصار .. !!

ومن المسلّم به عند كل ذي «عقل وعلم» أن «النظم التي تسير بموجبها الأمم» ، صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، حضارة وتخلفاً ، وجوداً وذهاباً .. ليست لعباً ولهواً ، ولا عبثاً وصدفاً !! إنها لا تمضي بدون نظام يمكن التعرف عليه ، والاستفادة منه وتسخيره لخير «الأمة الفاقهة» لخطوطه المتعددة الدقيقة القائمة على حكمة وتقدير (العليم الخبير) جل شأنه .

وبقدر إحراز أية أمة «لفهم أكبر» لتسخير «السنن الكونية» والاستفادة منها ، وتطبيق أدق لها تتبوأ مكانتها على الأرض . !

وبقدر نقصها في «الفهم» و «العمل بموجبه وتقصيرها في اللحاق بالحقائق الثابتة» ينعكس على سيرها سلباً وإيجاباً .. !!

(*) كتب قبيل عامين ولم يبق إلا بضعة أشهر ونكون في عام ختام القرن ، حيث بنهايته يطلع فجر القرن الخامس عشر الهجري ، أهله الله باليمن والخير والبركة .

وهذه «السنن» كونية مسخرة للإنسان من حيث هو كائن إنساني مستخلف في الأرض ، ومسؤول مسؤولية «اختيارية» حرة يتحمل فيها وبها صوابه وخطأه .. !

وهذه «السنن» في خط من خطوطها العديدة السارية في الكون والمبثوثة فيه ، منها ما يجري على الإنسان ، رضي أم أبى ، ولا يملك من أمرها نفعاً ولا ضراً «كالموت والحياة» وعلم الغيب . وبلوغ السنن إلى غاياتها المرسومة في طبائع الأشياء ذاتها ، ومنها ما يستطيع الاستفادة منها بتسخيرها لما يريد فينتفع منها بقدر ما أتيح له، من قدرة على التعلّم والتعرّف على السنن والكشف عن قوانينها والتقدم الدائم والمستمر في آفاقها ومجالاتها . ومنها ما لا يستفيد منه ومنها ما يتضرر به لغفلته وجهله وتعطيله «لأجهزة العلم» و «المعرفة» حيناً من الدهر .. مثل عدم دراسته «القوانين» التي وفقها يستخدم «النور» أو «الجاذبية» أو «قوة الدفع المتحرك» أو «طبيعة الأوبئة» وكيفية تجنبها ومعالجتها أو علم «سير الأمم» علواً وانخفاضاً أو علم «تغيير المجتمعات والأفراد» أو «علم قوانين الهندسة» في مجالاتها المتعددة وأشكالها المختلفة التي يقوم على أسسها التقدم والبناء ، أو سنن استخدام واستخراج ما في الأرض من طاقات وأرزاق وأثقال بنتائج استخدام الأجهزة التي زود الله بها الإنسان .. من سمع وبصر وفؤاد في نطاق العقل والفهم والعلم والتفكير .. ثم إذا ما أتيح لنفس هذا الإنسان مناخ يستخدم فيه قواه الفكرية ومحصوله العلمي تجنب الضرر وانطلق في ميادين الاستفادة الدائمة التقدم إلى الأمام ...

بذلك ترتفع أية أمة في مجال وسائل القوة والفاعلية درجات إلى مدى واسع لا يكاد يحيط به تصور وبنتائج تعطيل هذه الأجهزة واعتماد الخرافة والأساطير والظنون «وما ليس لهم به علم» تنزلُ بالإنسان أضرار نتيجة لتعرضه لما لم يعرف أو يكتشف ويذهب عليه أيضاً الانتفاع بما كان يجهله من سنن لو تم له اعمال فقهه وعقله وعلمه لاكتشفها وسخرها وانتفع بها .

كل ذلك سنن كونية متاحة للإنسان من حيث هو إنسان .... لا تتعلق بمعتقده ... آمن أم كفر .. إلى جنة هو أم إلى نار .... إنها السنن ... قدر الله لا نقص فيه ولا زيادة ...

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٥)   ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (٦)

انها السنن ... ميزان الله لكل شيء لا اختلال معه مثقال ذرة ...

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (٧)

انها السنن ... عطاء الله الشامل لكل شيء ...

﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (٨)

انها السنن ... ثابتة في خطوطها المرسومة ...

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٩)

وهي مسخّرة إلى المدى الذي حدده مدبّر الأمر (في السموات والأرض) وتحكم السنّة سنّة أخرى في تسلسل رائع بديع «فالجاذبية» على سبيل المثال ، تحكمها «سنة الدفع المتحرك» وسنة الداء تحكمها «سنة الدواء» ، وهكذا .. وهي سنن متشعبة تملأ هذا الكون الزاخر بما فيه .. !

أما من حيث سلوك الفرد والأمة والنظام الذي يجب أن يكون شريعة للفرد والأسرة والجماعة فتلك هي القواعد والضوابط التي تضمنتها «السنن التشريعية» التي جاء بها الرسل منسجمة مع «سنن الفطرة» و «ناموس الكون» مكملة لهما في الجانب الاختياري الحر ، مضيئة «للعقل» سبل «الحقائق» .. عاصمة له من «التيه» والضلال !! تحقيقاً لموعود الله يوم أمر الكائن الإنساني ممثلاً في أبويه : «آدم» و «حواء» عليهما السلام بالهبوط إلى هذا الكوكب بعضهم لبعض عدو ...

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٠)

وليس هناك طريق للخروج من الصراع في مختلف أشكاله إلى السلام الشامل في غير «هدى الله» مطلقاً وأبداً ...

إن الحضارة شيء والتكامل الشامل للحضارة شيء آخر ...

وقد بلغت تلك الرسالات السماوية كمالها في «الرسالة الخاتمة» و «الكتاب المهيمن» يوم بلغت البشرية رشدها وتقاربت زماناً ومكاناً .. وهذه الشريعة الهادية تضع أمام الاختيار الحر للإنسان معالم المنهج لحياته ، وهدى الله له في

معيشته ، ومختلف ما تقتضيه حياته من المهد إلى اللحد .. !

وكمال الأمم في «الذروة» هو أن تجمع في «فقهها» وتطبيقاتها بين «السنن الكونية» الماضية على الكون وما فيه ومن فيه و «السنن التشريعية» الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان ، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة ، للفرد والجماعة على هذه الأرض ، والسعادة الأبدية في «الدار الآخرة» ...

وبمقدار «التطبيقات» تحرز «النتائج» في كل من هذه وتلك ، سلباً وإيجاباً ومقداراً من القوة والضعف ، وكمالاً ونقصاً .. !

إن في تاريخ كل أمة «منعطفاً» * يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم .. إلى مكان عزيز منيع .. فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب ، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها .

وليس بعض السوء هو السبيل إلى الانهيار وإن كان «جرثومة» تعمل في الكيان الحضاري بقدر ما تمثله من «السوء» .. !

وليس بعض الكمال في الأخذ «بالسنن» هو السبيل إلى «العلو» .. فالأقل سوءاً في الجملة من غيره في عالم الإنسان هو الذي يسود على الأكثر سوءاً في الحساب الإجمالي لدرجات «السوء» .. وبهذا المقياس العلمي يتحدد :

ان الذي ناتج مجموع إيجابياته أكثر قوة وفاعلية في الحساب الإجمالي يكون له التفوق على الأقلِّ إيجابيةً وفعاليةً لسبب أو لآخر وكذلك بطبيعة الحال على الأكثر سوءاً الأقل إيجابية وفعالية بسبب تراكم السلبيات في الحالتين معاً ..

تلك السلبيات التي تصنع معوقات ومحبطات غاية في التعقيد .. !

(*) نقصد بالمنعطف «منحنى تاريخياً» ، أي حدثاً تاريخياً تتراخى فيه العوائق المستحكمة أمام الاختيارات التاريخية الحاسمة فيتاح للأمة حينئذ تغيير خط سيرها نحو «الأحسن» أو الأكثر «سوءاً» حسب وعيها ودرجة هذا الوعي أو انعدامه بتاتاً حين تسيرها عوامل اللاوعي ، وفي هذه الحالة ـ أي «السير العشوائي» تجدُّدٌ للكارثة ! لا خروجٌ منها .

والميزان كوني دقيق ، ومن هنا نفهم قول الله جلّت حكمته :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[11]

والظلم هنا هو الشرك . وقانون « بقاء الأمم » وعلو مكانتها في الأرض هو قانون : « الصلاحية العامة » الذي تتفوق به أية أمة على غيرها على درجة الفعالية الإجمالية لا التفصيلية ..

وهكذا تدور الحضارات حسب قانون « الصلاحية العامة » .. وهكذا تداول الناس الأيام .

أما العلو الحق ، والحضارة الكاملة المنشودة فلا يمكن أن تكون بأية حال على هذه الأرض ، إلا بالإسلام ، والإسلام وحده .. لسبب علمي واضح وهو : أنها وحدها يوم تقام على الأرض في أي تاريخ وأي زمن تجمع في وجودها وحركتها وعملها بين ما تقتضيه «السنن الكونية القدرية» و «السنن التشريعية الهادية» ، بين « الكتاب المسطور » ، و « كتاب الكون المصنوع » .. بين « التنزيل » و « التكوين » ، كلاهما من مصدر واحد لا يمكن أن يختلفا قيد شعرة .. بين ما يقتضيه «ناموس الكون» اكتشافاً وتسخيراً ، وما تهدي إليه «شريعة الله» قولاً وعملاً وعلماً ومعرفة ونهج حياة للفرد والمجتمع والدولة .. بين « الإلزام » الذي يشع من « داخل الفرد » ، و « الرقابة العامة للمجتمع » و « مسؤولي الشريعة » .. وناموس الكون والحياة ..

إن شواهد الواقع الإحصائي في العالم لمختلف تاريخ الحضارات بالنسبة لحياة الإنسان ، إنما تؤكد بما لا يرقى إليه ريب أو شك إنسانية الحضارة الإسلامية في أرقى الذرى التي يمكن أن يصل إليها الكمال البشري ..

ونظرة واحدة في إحصائيات أرقى دول الحضارة اليوم عن « الجرائم » التي تحدث بين الإنسان وأخيه الإنسان وأنواعها البشعة التي لم تكن حتى لِتُتَصور مجرد تصوّر في عالم الواقع يقدم الدليل الحاسم على البون الشاسع بين الحضارتين ..

(إن شئت الدليل .. ارجع إلى إحصائيات أرقى دول العالم المعاصر — الولايات المتحدة الأمريكية) .

حقائق التاريخ ودروسه

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة يوسف – آية ١١١)

يوم تحوّل الإنسان العربي بالإسلام وكان على هامش حياة الأمم شيئاً غير مذكور ، وكمية مهملة في جدب الصحراء والقفار ، تسلّم «قيادة العالم» وحقّق على الأرض بحكم النبوة والخلافة الراشدة صورة للحياة العادلة الكريمة لا تدانيها صورة في التاريخ ..

ويوم انحرف مع اطلالة «حكم الفرد» وجعل الأمر «وراثة» و «ملكاً عضوضاً» كانت الأمة ما تزال في مجموعها – رغم ما أصابها في قيادتها من انحراف نحو الأسوأ – أقل سوءاً من جميع أمم الأرض . فكان لها السيادة في العالم بحكم : قانون «الصلاحية الإجمالية» بالمقارنة إلى غيرها من أمم الأرض قاطبة ..

ويوم استمرت في الهبوط في «السوء» حتى سفلت عن غيرها من الأمم جاءتها :

- قارعة التتار ... فلم تستخلص الدرس ، ولم تصغ للعظة ولا استفادت من العبرة فجاءتها :
- جحافل الصليبيين .. ولم تستيقظ بعض اليقظة إلا لتعود إلى نومها وغفلتها عن «سنن الله» فدهمتها :
- قارعة الأندلس ... ومحتها محواً تاماً من رقعة من الأرض طالما كانت فيها مصدر إشعاع ونور في ظلام ما حولها من الأمم .. فلما تردت في سوآتها ، وغفلت عن «السنن» جاءها العذاب مربراً كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

واستمرت الأمة متخبطة في عقابيل انحرافاتها ومستنقعات سوآتها ، ويغطي على هذه الانحرافات ويتستر على تلك السوآت علماء بحسن نية أحياناً (مثال هؤلاء : العلماء المغفلـون) ، وبسوء نيـة أحيانـاً كثيرة (مثال هؤلاء : العلماء المتعيشون !!) ، بل ان هؤلاء العلماء قد أضفوا «ثوب القداسة» على هذه الانحرافات وفتنها المظلمة ، وتلك السوآت وفي قمتها «تنظيم الحكم» و «قيادة الأمة» ، ويفقدون عند بحثها العقل والمنطق والدليل !! والشيء الوحيد الذي

لا يفقدونه هو ملء جيوبهم مما اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا . وسواء أكانوا يؤلفون في ظلال أولئك الطواغيت أم بعد زوالهم من الأرض أم مع انبعاثهم من جديد فهو خط انحرافي واضح في التاريخ هم عنه مدافعون وفي سبيل الحفاظ عليه مجادلون ، ولكن ..

﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ (١٢)

ومن يجادل سنن الله وهي تفضي بهم وبأمتهم إلى نهايات يعرفها من استقرأ التاريخ وتتلمذ على الوحي ..

وهم إذا بحثوا عن أدواء الأمة فعن الظواهر يبحثون لا عن الأسباب الباعثة للأمراض المتفشية في المجتمع والصانعة لها .. !

ورغم القوارع الثلاث لدولتهم ومجتمعهم :

قارعة التتار .. !

جحافل الصليبيين .. !

كارثة الأندلس .. !

لم تُدرس أسباب ما حدث ولم توضع «الحلول الصحيحة» ، ولا دُرِست «طرق العلاج» ، ولا «أساليب الوقاية» فاجتاحها «الاستعمار» ومزقها شر ممزق أرضاً وفكراً .. وهي لا تملك إلا أن تأخذ بما يبهر عيونها من مجد وقوة وفكر الغازي «المستعمر الكافر» ، أو تعود منكفئة على أسباب انحطاطها تجتر صديد أفكار «عصور الانحطاط» و «الانحراف» ولم تواجه الأمر مواجهة **عقلية وعلمية** لتستقرئ السنن الثابتة وتقف على الحقائق كما هي ، وتتخلص من أدوائها على هدى وبصيرة .. ! !

وفي غمار جهلها وغفلتها وإعراضها عن الحقائق القائمة على العقل والعلم لم تستفق من مهانتها بالاستعمار وهي تظن أنها مشرفة على الحرية والاستقلال إلا لتمضي في غباء في الخطوط المرسومة لها من قبل أعدائها .. ! ! وهكذا مضت إلى مآسي ما حدث في شبه «القارة الهندية» والأطراف الإسلامية بلا استثناء وإلى «فاجعة فلسطين» وضياع معقد عزتها وكرامتها في «الأقصى» ، ثم مضى لهب

الدم والعار إلى ما حول فلسطين من بلدان ضالة عن الحق ، متخبطة في التيه .. !
والنوازل مستمرة بهذه الأمة في أكثر من مكان على الأرض !

وخلال ذلك جاءت نازلة اضطهاد الحركة الإسلامية الشعبية بشكل لم يسبق له في التاريخ ضريب أو مثيل .. !

ووسط ظلام المأساة استمر زيف «التقدمية اليسارية» المصنوع في معامل أعداء هذه الأمة والذي كان من السهل زراعته في الخواء العام حيث غاب «العقل» .. و «العلم» و «الفهم» : دعائم التفكير الإسلامي منذ زمن بعيد .. !

ولكن هذه «التقدمية اليسارية» لقيت مصرعها في حرب (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م) بأوضح لغة وبيان ! !

كما لقيت القومية العربية التي زرعها وتعهدها مسيحيو العرب وبالأخص مسيحيو لبنان - لقيت مصرعها في حرب لبنان حيث لم يقبل المسيحيون العرب في لبنان إلا بسفك دم «القومية» التي ابتدعوها وما رعوها حق رعايتها فلم يغن سرابها عن أحد شيئاً ...

إن المسيحيين العرب الذين يقتلون اخوانهم المسلمين في لبنان ينسون أن الإسلام حفظهم أحراراً في ظل سلطته المطلقة عشرات القرون وكذلك ينسى فلاسفة القومية سواء كانوا مسيحيين أو مرتدين من الذين رجعوا أعراباً يضرب بعضهم أعناق بعض - أن الإسلام وحده هو الذي وحّد العرب وأن أية وحدة لا تقوم على أساسه مصيرها الشقاق والتمزق ..

وعلى المسيحيين خاصة أن يتذكروا جيداً أنه يوم كان الحكم للإسلام ، فبه عاش المسيحيون في علاقات بر وقسط مع اخوانهم المسلمين ... و «بالقومية» التي - كما سجّل التاريخ - أنهم ابتدعوها وسجّل لهم أيضاً أنهم ما رعوها حق رعايتها كتبت الأحداث بخط معمد بالدم عدم صلاحيتها لتكون نظاماً بين الإنسان وأخيه الإنسان .. إذ تفجرت تحت مظلتها المهترئة الأحقاد والكراهية بشكل لا تعمد إليه الوحوش الضارية .. بشهادة التاريخ المعاصر .. وبالواقع المسموع والمرئي بين العالمين .. !

وحيث تبين أن القومية ما هي إلا إحدى وسائل الصراع ضد الحقيقة الإسلامية التي هي رحمة الله للعالم كله ...

ولكن من استخلص الدرس والعظة والعبرة .. ؟؟ وهذه الدروس تكتب على شاشة الأفق معلنة عن نفسها لمن كان له قلب فاقه أو ألقى السمع وهو شهيد : انها أحداث لا تمحوها سنين وأجيال ! !

- منعطف هزيمة التتار كان من الممكن لو استخلص الدرس لتفادينا ما تلا ذلك من فواجع قارعة وذلك بأن يقوم مفكروا الأمة ومجتهدوها وأولـو الرأي الحكيم فيها بمراجعة شاملة لما أصاب « النفس المسلمة » من سوء ! ولتتبعوا حينئذ عقابيل المرض وحسموا الداء ، ووضعوا أيديهم على منابعه فطهّروا بذلك « كيان المسلمين العام » ... !
- منعطف « هزيمة الصليبيين » كان من الممكن أن يكون سبيلاً إلى يقظة لا عودة إلى نوم ! ! وسبباً في يقظة الآخرين ...
- « سقوط الأندلس » كان من الممكن أن يكون صوت النذير فنتجنب « مرحلة الاستعمار » .. ! !
- « مرحلة الاستقلال » .. كان يمكن أن تكون تتبعاً لجراثيم الداء الذي صنع « القابلية للاستعمار » بكل صوره وكان يجب أن يكون في الوقت ذاته إيجاداً لوسائل استخلاص النتائج للسير في الصراط المستقيم .. ! وللقضاء على القابلية للاستعمار الفكري .. في كل صوره التي يرتكز عليها ! والقضاء كذلك على مـا أدت إليـه مرحلة الاستقلال من تسليم الأمـة إلى الصورة الاستعمارية الجديدة .. ألا وهي المرحلة التي تجتازها هذه الأمة والقرن الرابع عشر يؤذن بوداع ..

وتلك هي مرحلة الانقلابات العسكرية أو « الاستعمار بالواسطة » أي بواسطة أجهزة الحكم ، وهو ما سنتحدث عنه بشيء من التفصيل الموجز في سلبيات هذا القرن العصيب .

سلبيات هذا القرن ..!

﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة يونس ـ آية ١٠١)

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(سورة الأنفال ـ آية ٢٢)

ولكن هذا الاستقلال الذي نالته الشعوب الإسلامية في هذا القرن كان مفرغاً من معناه ومحتواه بسبب فقدان الأمة للقابلية له ، وخواء روحها . وجهلها بما يترتب عليه من مسؤوليات – إنه في الحقيقة معناه وواقعه العملي ما نستطيع أن نطلق عليه بتحديد دقيق : ظاهرة «الاستقلال الشكلي والقانوني» وأما محتواه ومضمونه فهو الاستعمار المبطّن من خلال الوجوه المنافقة العميلة فكراً أو حقيقة ..

إن مثل هذا الاستقلال الخاوي عملياً من «المضمون» و «الواقع المعاش» يفوق ضرره وآثامه الاستعمار المكشوف ذاته .. !

ولقد تبين بوضوح على وجه الأرض لكل من له إلمام بالسياسة أن سمات هذا الاستقلال ومعالمه : «قصور ذاتي ودولي» وعدم قدرة على «الاستقلال الفعلي» فلم يكن عطاؤه إلا ضياعاً وتخبطاً وشللاً . ولقد كانت «التجربة الديمقراطية» على أساس «الأشكال الغربية» عبارة عن تجربة «تعبير» وترقيع ومتاهات لا «تجربة إصلاح وتبديل وبناء» .. ! ولما كانت «الديمقراطية الغربية» في بعض تفاصيلها ومرتكزاتها ومكوناتها وغائياتها – لا في بعض النواحي المشرقة منها – بعيدة عن روح «الشورى الإسلامية» الملتزمة بمنهج الإسلام ، وأخلاقية منهجه ، فقد ظهرت هذه « الديمقراطية » كما لو كانت سباقاً محموماً على كراسي السلطة والانتفاع بها أكثر من كونها استخلاصاً للآراء النافعة في تسيير وإدارة المجتمع ، ورقابة على المسؤولية التنفيذية حتى لا تنحرف ، أو تستغل ، أو تطغى .. ! ! كما هي في «الشورى الإسلامية» .

وفي أقصى ما توصلت إليه التجربة البرلمانية في البلدان المتخلفة أنها كانت عبارة عن وسيلة «للتعبير والكلام» لا للعمل والتبديل والمضي نحو الأحسن والأرشد ... !

ولكنها كذلك في نظرنا لمجرد وجود شيء من «الحرية» أتاحت لقوى الإصلاح أن تسير في طريق بناء وإعداد «قوة التحويل والخروج من الظلمات إلى النور» فعاجلتها «التجربة الثورية» .. أو ظاهرة الانقلابات العسكرية بتعبير أدق ، تلك الانقلابات التي لم يعد خافياً صلتها بمخططات «العالين في الأرض» .

وإذا كانت الديمقراطية البرلمانية فيها من دون شك البريق المتألق «للحرية الإسلامية» ، و «الشورى الإسلاميــة» يحجبه في الدول المتقدمــة «الفلسفة الذرائعية» * (Pragmatism) والوصولية المجردة لفرد أو جماعة فإن هذا البريق ذاته تحجبه في الدول المتخلفة «الشكلية الميتة» وحب المظاهر الفارغة والادعاء الكاذب وليس «برلمان الأمة» أكثر من «ناد للكلام» ، إذا كان ذلك حصيلة التجربة البرلمانية على الرغم من استفادتها من تألق الحرية وعدل الشورى ولو عن طريق التسمية والادعاء أو تحقيق بعض المكاسب للأمة ، فإن «التجربة الثورية» المصطنعة استطاعت كذلك أن تستفيد من معنى الثورة في ضمير الإنسان .. ذلك المعنى الأصيل القائم على الجهاد ... والتحول نحو الأحسن ، ثم لتقتل هذا المحتوى النبيل بعمايتها وزورها وزيفها وسقوطها في الفتنة ، ولقد كان أهم هدف استهدفته مخططات التآمر الدولي من «التجربة الثورية» أو ظاهرة «الانقلابات العسكرية» بتعبير أدق ، هو الحيلولة بين قوى التحويل والتبديل والبناء الحق من أن يجد طريقه إلى دنيا واقع الناس ، ولقد كان أبرز سمات تلك التجربة هو : «سلبية في الخير» ، وإيجابية نحو الأسوأ ، إذ هي «هدم» لا بناء معه .. «تقويض» لأشكال «سياسية تقليدية قائمة» لا خلق «لمضامين بناءة» ، «تفكيك» لعلاقات و «مؤسسات موروثة» ، لا تصحيح لانحرافات طارئة ومفاسد يجب أن تقتلع من جذورها فكراً وواقعاً ، «هدم لبناء متداع» .. لا إقامة «بنيان اجتماعي» يقوم على أساس من العقل والعلم والفقه – الفهم – مناخ فكري تسوده : الشعارات «التمردية العامة» و «الأشواق الغامضة» والمواعيد الزاهية ، ومغازلة الأحلام السحرية – لا مناهج للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والرسالي القائم على الدراسة والبحث والعلم والمرتبط بعقيدة تضم شتات ذلك كله وتكون بمثابة مركز الجذب الذي يؤدي إلى توازن لا اختلال معه ولن يكون ذلك كذلك أبداً ومطلقاً إلا «بالعقيدة» ... وهذا قانون «سنّة» لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلا ..

(*) أي العملية التي ركزت على أهمية «الفعل» وعمليته بصرف النظر عن أخلاقيته إلا في حدود الواقع العملي الذي تكونه ظروف عدة ، وهكذا ساد هذا المعنى الفكر العام لا المتخصص للفلسفة الذرائعية (Pragmatism) .

إن الذي يكوّن الأمة هو «العقيدة» طالما كانت عملية وليست عوائقها من النوع المحبط للحضارة ... !

(إن «العقيدة» ليست ناتجة عن مجرد مجموع أفكار شتيتة ولكنها مسيِّرة «الطاقات» بوحدتها حول فكرة مركزية لها من الشمول والمرونة ما يجعل الأفكار والمفاهيم المنبثقة عنها تدور حولها وبذلك تكون السهم الذي يعين للأمة طريقها في التاريخ ..) (١٣) .

إن الحركة «الثورية» في العالم العربي بأسره نجحت في مغازلة حلم التبديل والتحويل العربي وفشلت في تحويل الحلم إلى تطبيقات اجتماعية موفقة ، وبنيان سياسي حر متحرك يتصف بالوعي والشمول ، وبنية اقتصادية قوية وسليمة تحت مظلة فكرية عامة تصدر عنها حضارة الأمة ..

إن «الجيل المعاصر» قد ولد في منعطف تاريخي أفضى به إلى مراحل جديدة ولكن بدون «ميزان» يقوّم به أين كان ؟؟ وأين يجب أن يكون .. ؟؟

لقد لفّه الضباب .. ضباب الشعارات التي أطلقها الذين أرادوا تحقيق شهواتهم ومآربهم دون أن يرُوا على حقيقتهم ، لقد ركزوا على «الإثارة» العاطفية وتمكين «غيبوبة العقل والوعي عن واقع السير في الضباب الكثيف !!» .. ذلك الضباب الذي لا يكاد هذا الجيل المعاصر يتبين فيه مواقع أقدامه ..

وفي هذا الجو الانتهازي الهابط نحو الدرك الحيواني تستيقظ الغرائز والشهوات وفي مقدمتها «شهوة الحكم» .. و«التسلّط» ... و«شهوة جمع المال» .. والاستيلاء عليه ..

في مثل هذه الأجواء يكون قانون المجتمع هو قانون الغاب ، حيث السبيل إلى الحكم هو : القوة .. والإرهاب المهول .. وخنق الإرادة الحرة في الإنسان .. !!

والسبيل إلى المال هو : المصادرة .. أو النهب .. أو الرشوة .. أو استغلال مراكز النفوذ ، والوسيلة هي :

الشعارات البرّاقة من مثل : «حكم الشعب» .. و«ملك الشعب» .. في الخط الثوري ، أو تصرف أولي الأمر في الخط التقليدي حيث لا يُسأل عما يفعل وهم

يَسألون .. وذلك ما لا يصلح إلا لله وحده ، حيث يتصف بالعدل المطلق ..

الجهلاء في سدة الحكم .. السبيل إليه : «الغلبة» .. و «القوة» ..

اللصوص المغتصبون في إدارة الأموال العامة .. السبيل إلى ذلك : «قتل أي مراقبة للأمة» .

لقد أصبح العالم الإسلامي وخاصة العربي منه في مرحلة تمزُّق وعودة إلى استعباد الآخرين له عشية كانت امبراطوريتا فارس والروم تتقاسمان النفوذ فيه والحكم والسيطرة عليه وتثيران نيران الأحقاد والحروب بين أبنائه والإسلام وحده الذي أخرجه من ظلمات ذلك كله إلى دروب القيادة وعطاء الخير ..

واليوم ليس أمامه إلاَّ **الردّة** إلى الجاهلية وحصادها مما بدأ يجنيه وما سيجنيه من مذلّة وهوان وضياع شامل . أو **الإسلام** حيث ينقذ نفسه وينقذ العالم كله من دمار مهول ..

إن عصور الانحطاط ، و «خط الكسروية» و «القيصرية» معاً أفرزتا أشكالاً للحكم تهدر «حقوق الإنسان» كما وأنها خلقت «القابلية للاستعمار» ...

وإن «عصور الاستقلال» الخالي من أي «مضمون» أفرزت مسؤولين غرباء عن السنن التي يُبنى على أساسها مجتمع مَّا رغم ثقافتهم المعاصرة .. !! إلا أن مناهج تلك الثقافة في منحاها الفكري خاصة تخدم في الجملة مصالح القوى الاستعمارية ولم يكن لهم من «العلم» أو «الإخلاص الواعي» ما يدركون به أن لكل مجتمع قوانينه الخاصة به التي تتضافر على وسائل تحويله وتبديله والتي يكون بها وحدها إمكانية البناء ...

وكذلك فإن الانقلابات الثورية المصنوعة في «دوائر الاستخبارات» لم تكن إلا للحيلولة بين الأمة وبين السير في وجهة صحيحة .. وقد وجد الاستعمار الذي حمل عصاه ورحل أنه لم يترك في الأمم المستعمرة إلا الفراغ ، ولما رأى تعذر ملء هذا الفراغ علناً ملأه بعملائه المصنوعين أو المسيرين وهذا الفراغ ليس إلا الفراغ في العقيدة ، وبينما هذا الفراغ العقيدي يحير الواعين ويشبع في ذات الوقت «متشردي الفكر» والباحثين عن الزعامات كذلك فإنه قدم أيضاً التربة الصالحة للقوى الخارجية لتشكل من العجينة مثالها المشوّه !! وهكذا كان ...

وقبل أن تنتهي المسيرة مع «سلبيات القرن الرابع عشر للهجرة» لا تكتمل الصورة على حقيقتها دون تقييم موجز «للحركات الإسلامية» في نطاق «سنن الله» ..

ففي تلك الظروف ، وبينا يخيم على امتداد ساحة الإسلام ذلك كله .. فإن «الحركات الإسلامية» التي تعبر بحق عن التوق المخلص إلى تلمس خط الخلاص الحق ، تحاول أن تهتدي خلال صراعها المرير إلى تطبيقات تجنبها عوائق أفرزتها «عصور الانحطاط الفكري» باطلاً يلبس ثوب حق ، وحقاً متلبساً بباطل ، فتنجح مرة ويغيم عليها الاتجاه مرات كثيرة .. !!

فمنذ انهيار دولة المسلمين «العثمانية» على ما تحمله تلك الدولة وتمثله من خط انحرافي ورثته من عصور «التطبيقات» التي انحرفت عن خط «الخلافة الراشدة» ، إلا أن تلك الدولة العثمانية كانت – رغم ذلك – آخر قلعة ترمز إلى «وحدة الأمة» و «الدولة» بشكل عام ... فمنذ ذلك الانهيار وظهور رجحان القوى الصليبية في الشرق والغرب على أرض المسلمين ودولهم في آسيا وإفريقيا ، وشرق أوروبا !! والحركات الإسلامية تتلمس مواقعها في كل مكان بقي فيه للإسلام نبض يُحَس ..

ومنذ ارتفاع صوت المصلح العظيم .. جمال الدين الأفغاني .. منذراً بالمآل الخطر ، مبشراً وداعياً إلى الحل الإسلامي ، وما تلا ذلك من انهيار تام لدولة المسلمين «العثمانية» ، ووقوع أرضهم وبلدانهم في قبضة أعدائهم ، وتجزئة أرض المسلمين وتمزيقها ، وتخريب ما تبقى لهم من تراث أي ما تبقى في العروق بعد الذبح ، على حد التعبير الفقهي .. وبعد أن مرت بهم مرحلة الاستقلال ومرحلة «التجربة البرلمانية» فظاهرة «الانقلابات العسكرية» وسيادة «الغزو الفكري» في مرحلتي القابلية لاستعمار «الأرض» واستعمار «الفكر» .. وبعد أن مزقت أمة الإسلام إلى أمم ودولته إلى دول .. منذ تلك المراحل التاريخية كلها التي مرت بها الأمة فقد بقي خلال ذلك «نور الفكر الإسلامي الأصيل» يغالب الظلام .. فنشأت «الحركات الإسلامية المعاصرة» – خلال تلك المناخات ومع بداياتها وتطوراتها المستمرة من حال إلى حال – مبشرة بالروح الحق المعبر عن الإنسان ..

ذلك «الروح المتسق مع الفطرة» ، الموقظ «للعقل» الهادي إلى «العلم» ، واستهدفت تلك الحركات جميعاً إقامة «مجتمع الإسلام» و «دولة الإسلام» ، وهي وإن نجحت في إيجاد «جماعات إسلامية ملتزمة» و «تيار فكري إسلامي مميز» ، إلا أنه منذ أكثر من نصف قرن من تاريخ «الصحوة الإسلامية المعاصرة» لم تقم للإسلام دولة تمثله ، ولا كيان يضم قواه ويوجهه ، عالمياً ، نحو غاياته ، لا في البلاد الإسلامية العربية ، ولا في أي بلد كان * ، وذلك راجع بطبيعة الحال ، إلى «قصور الوسائل» وعدم تفهم «السنن» والأخذ بها . إن على الباحثين والدارسين أن يولوا هذه الناحية جلّ اهتمامهم وعليهم أن يتوصلوا إلى تحديد أسباب ذلك .

إن «التدبير» و «التنظيم» و «استخدام الوسائل» الكفيلة بتحقيق الغايات كلها أمور يبت فيها اجتهاد الإنسان ونوعية مداركه ، وهي ميدان اجتهاده ، وفيها أجره وثوابه ، وطبيعة مصيره ، وعلى الباحثين والدارسين – وخاصة أولئك المتفرغين لعلم «الاجتماع» والمثقفين ثقافة إسلامية صحيحة واعية لزمنها – عليهم أن يقدّموا نتائج دراساتهم وأبحاثهم إلى العاملين الساعين لتحقيق الغايات المنشودة .

ومن المهم تسليط الأضواء على أمراضنا الاجتماعية والخلقية المختلفة .. ووضع حد للغيبوبة الصوفية المغرقة في الشرود ، وعلى الكسل الفكري وخضوعه للرجع الكهنوتي اللامنطقي ، وعلى النفاق وتملق الذات والجنوح إلى تبرير الأخطاء وعدم

(*) في هذا العام الذي يمضي نحو عام الختام للقرن الرابع عشر الهجري برزت الثورة الإسلامية الكبرى في إيران بقيادة الإمام آية الله الخميني التي أذهلت العالم في الشرق والغرب ، والتي أصبحت الشغل الشاغل لوسائل الاعلام المسموعة والمقروءة والمرئية في العالم للتحذير من يقظة المسلمين ووعيهم لذاتهم ورسالتهم ، ولقد وقف قادة العرب من هذه الثورة نفس الموقف الذي وقفته الجاهلية من ظهور الإسلام .

واننا على يقين ، سواء نجحت الثورة أم فشلت ، بأن الإسلام هو مستقبل البشرية كلها رغم المكر والمؤامرات التي تكاد تزول منها الجبال ، فشعار المسلم أمام كل قوى الشر : الله أكبر ، وسبيله الدائم :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١٤)

دراستها بصفة مستمرة متواصلة ، ومن الأخطاء التي تجدر الإشارة إليها هنا هي «الإقليمية» المتفشية في جميع بلدان المسلمين بصورة بشعة طاغية وهي التي يجب أن لا يكون لها وجود في كل بلد يدين حقاً بدين الإسلام .. إذ «الإقليمية» مقضى عليها حالما ينتمي المرء إلى هذا الدين الحنيف لأنه بذلك يتطهر من أدران الجاهلية وأوساخها ويصبح «مواطناً كونياً» بعد أن كان لا يعرف إلا «مجتمع القبيلة» .. ! !

إن المسلم يستهلّ صلاته عدة مرات يومياً بالآية الكريمة : (بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين) .. وبذلك يقر ويعترف «بمجتمع العالمين» ويعترف بأنه جزء من هذا الكون العظيم الذي أبدعه خالقه ، وهو بهذا الإقرار والاعتراف يرفض النظرة المحدودة إلى الزمان والمكان ويتخطى حدود «القبيلة» وانتماءاتها إلى هذا «الكون الفسيح» منتمياً إلى «العقيدة» .. و «العقيدة» وحدها ... مردداً الحقيقة القرآنية :

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (١٥)

والعجيب أن «الحركات الإسلامية» اليوم معظمها أسيرة الإقليم الذي نشأت فيه لا تبغي عنه حولا ، ولا تفكّر في سواه .. ! ولو كانت أرضه مستعصية على الثمر الطيب ..

إن واجب المسلم هو أن ينظر إلى الأرض من حيث صلاحها لتكون مرتكزاً تنطلق الحركة منه إلى الأرض كل الأرض وإلى الإنسان كل إنسان .. وفي الهجرة إلى المدينة درس يعلمنا الكثير ، فهو يرينا كيف أن الرحمة المهداة إلى العالم .. محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلّم .. يترك «مكة» .. أرض البيت العتيق ، وأول بيت وضع للناس هدى ورحمة ، إلى مكان آخر ، وذلك عندما استحب «أهل مكة» العمى على الهدى ، لقد فكر النبي في «الحبشة» وفكر في «الطائف» وفي «اليمن» وعرض نفسه على القبائل الآتية من كل صقع إلى «مكة» وظل يبحث ويتحرى إلى أن وجد ضالته بعثوره على المكان الصالح «للدعوة» والذي توفرت فيه إمكانيات النصر والحماية وكان هذا المكان هو «يثرب» .. المدينة المنورة ... «أرض الإسلام» ... ونبع نور دولته إلى العالم ...

فهل درست «الحركة الإسلاميه المعاصرة» موضع «المكان» ... ؟ إنني أشك في ذلك كثيراً* وأن من أسباب ذلك كما أقدّره هو الإقليمية التي تجعل الحركة محدودة الرؤية فلا تتعدى حدود المكان الواحد ، ولا حدود البلد الواحد .. إن الحركة الإسلامية «دعوة عالمية» وهذه الصفة العالمية يجب أن لا تغيب عن الأذهان وهي تتطلب كذلك حشد كل الإمكانيات ، لا التربوية أو الأخلاقية أو السياسية أو الثقافية فحسب ، وإنما كذلك من أهمها – بعد منهج أصول العقيدة – موضوع صلاحية المكان ثم حشد القوى والإمكانيات التنظيمية ووسائل القوة على مختلف صورها وأشكالها وفي مقدمتها : الخبرة الاقتصادية ، وهي وإن كانت من مفصلاتها ، إلا أنه يجب أن تولىٰ اهتماماً واعياً مدركاً .. فقد هتف «عبد الرحمن بن عوف» غداة وصوله إلى المدينة المنورة متسائلاً : أين «السوق» ؟ (١٦) وكان من رفاقه «عثمان بن عفان» الذي استثمر الأموال وأمدّ الحركة بما تحتاج إليه من مال .. وقدم القرآن دائماً المال على «النفس» ...

﴿ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ (١٧)

(*) ومن الإنصاف للحقيقة أن لمحة عبقرية للإمام الشهيد «حسن البنا» فكرت في «المكان» ولكن هذه الفكرة المستنيرة وُئِدت مع انطفاء تلك الحياة العظيمة لذلك المجدد الملهم فلم تكرس في برنامج الحركة كاستراتيجية تعتمدها في وسائلها لتحقيق الغاية .

سلبيات الحركة الإسلامية المعاصرة

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾

(سورة آل عمران ــ آية ١٦٥)

نستطيع تلخيص هذه السلبيات بإيجاز وتركيز فيما يلي* :

إن عدم القيام بدراسة عميقة ومستوفاة لأسلوب العمل الإسلامي في المجتمع المكي قد هيأ المناخ المواتي لوقوع أخطاء وسلبيات في أسلوب العمل الإسلامي المعاصر .. ففي المجتمع المكي تم بناء الإنسان المسلم القوي الخالص لله ، الواعي لما يريد غاية ومحيطاً ووسائل ونهجاً ، العارف بأعداء عقيدته ، المنضبط في الصف كالبنيان المرصوص ، لا يترك ثغرة ينفذ منها عدو ...

ذلك المسلم مثّله «بلال» وهو يرفع أصبعه في شموخ «أحد أحد ..» [١٨] وكأنما كان يرفع المستضعفين في الأرض نحو الأعالي ، ويومئ — بإيمان مبصر — في حركته هذه إلى تحرير الإنسان من عبودية المخاليق أياً كانت ...

والمسلم الذي سمت في مناخه الفكري روح «سمية» قائدة موكب الشهداء يوم القيامة ، وزوجها «ياسر» إلى الرفيق الأعلى ، غير عابئين بألوان التعذيب الفاجر ، وهما يعلنان للدنيا حتى الأبد : أن النصر هو لفكرة الإيمان الربانية التي لا تقهر ويعلنان تجدد الحياة الحقة وبعثها على الأرض .. وكان موعد البطولة الإيمانية هذه ، هو الجنة على حد تعبير الرسول الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» .. [١٩] .

وتلك هي اللبنات التي بني منها الصرح الإنساني الجديد ، حيث تكافل المجتمع الإسلامي داخل ذلك البناء الذي لا عوج فيه ولا نشاز .. وحيث تآزر وتعاون وتضامن حقاً وصدقاً ، وقولاً وفعلاً ، كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر[٢٠] ... وقد مثل الفرد المسلم في هذا المجتمع أعلى درجات الانضباط والصبر والتلقي عن الله يربيهم بمنهجه وبقيادة وإمامة رسوله الأمين ..

(*) هذا البحث من «محاضرة» ألقيناها على مؤتمر ضم نخبة من العاملين للإسلام التقوا في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، تحت عنوان : «نظرة على الحركة الإسلامية» ، وقد سجلناه هنا بتصرف .

ولا يعني هذا أن نماذج الإسلام الفريدة هذه لا تتكرر .. فإن عطاء الحركة الإسلامية على مدار التاريخ والأجيال قد كتب أروع آيات السمو الإنساني وفي الحركة الإسلامية المعاصرة قد أبان كذلك عن نماذج بشرية فريدة هي امتداد لتلك الجذور الإسلامية الضاربة في تاريخ الإسلام ، والذي كان وسيظل إلى الأبد ، شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ..

ليس هنالك من منصف يلتزم الحقيقة ويستطيع أن لا يرى في الحركة الإسلامية المعاصرة من جسّد أعلى درجات التضحية الإيمانية بماله ودمه ونفسه ، ومن تناوشته وحوش التعذيب المسعورة الضارية تمزيقاً وتقطيعاً ، وتعذيباً وتحريقاً ، وتشويهاً ومُثلة !! ممن لقوا الله في أروع صور الاستشهاد ولكن هذا ظل منحصراً بفئة ممتازة ولم يعم القوة ذات الفعالية في المجموع الناتج عن الحركة ، إذ أن هناك بعض صفات أساسية عرقلت المسير السوي لمعظم الحركات الإسلامية المعاصرة منها :

(أ) فقدان الروح الجماعية المنضبطة ، بحيث كانت هنالك ثغرات نفذ منها المتربصون ليشعلوا نار الفرقة ، فيكون الفشل وذهاب الريح ..

(ب) الفتنة التي كشفت عن بعض عناصر أخلدت إلى الأرض واستكانت إلى الدعة والاسترخاء ، بعيداً عن المغارم ، قريباً من المغانم ... ظلت متشبثة بما لا يضر مصالحها الجديدة ، ولا يشكل في ذات الوقت قوة إيجابية دافعة .. ووجدت فيها القوى التي تستخدم الإسلام ولا تخدمه ، ستاراً لعوراتها ، ووسيلة لتجميد طاقات طائفة من المخلصين وقعوا في الشراك الناعمة ..

(جـ) إقليمية العمل الإسلامي ، وعدم تحرره من اسار المكان الذي ترعرع فيه ، غافلاً أن مكاناً بعينه ليس هو الغاية ، وإنما المهم هو تحقيق غاية الحركة ، في أي مكان يصلح للبناء الجديد . والحركة بعد ذلك ، من طبيعتها الشمول الذي سيعم كل مكان . وأن على العمل الإسلامي أن يرتاد الأرض

المستجيبة والمكان المنيع والحماة والأنصار الذين يأوون ويحمون وينصرون ويحبون من هاجر إليهم ..

(د) عدم حشد الكفاءات والخبرات الإسلامية ، ومن ثم دفعها مركّزة إلى ميدان الخدمات العامة للمسلمين بشكل عام وحركتهم بشكل خاص على أساس قاعدة : « كل وما يحسنه » و « تنسيق العمل » و « جماعية السير » ، نحو تحقيق « الهدف الواحد » ، و « الوجهة الواحدة » .

إن المسلمين ، وقد فرض الله عليهم درساً يؤدونه خمس مرات يومياً ، إلى « وجهة واحدة » وفي « جماعة واحدة » ، و « صف واحد » ، لا ثغرة فيه ولا اعوجاج ، قد أثبتوا منذ غاب عنهم الفهم ومات في قلوبهم معنى « ما يؤمرون به » ، انهم لم يعودوا يستفيدون من الكتاب والحكمة التي بين أيديهم .

(هـ) الافتقار إلى تنظيم عام للدراسة والبحث وتوحيد المناهج الفكرية العامة ، والمفاهيم السياسية القائمة على العلم بحقائق ما يجري على الأرض ، وإلى توجيه الحركة وإعدادها على المستوى العالمي ، وإلى التنسيق بينها ، والاستفادة من ميادين تخصصها ، وذلك حتى تدور كلها حول غاية واحدة ، وتكون في نفس الوقت جهاز اتصال على مستوى الساحة المسلمة جمعاء .. جهاز يدرس ويمحّص المعلومات والتطورات والقضايا الإسلامية ، ويقوم بدور توصيل المعلومات بعيداً عن كل أجهزة الجاهلية المشبوهة ، من صحافة ووكالات أنباء وأجهزة إعلام متعددة ... وحتى لا تقع « الحركات الإسلامية » و « جماهير المسلمين » في « الفخاخ » التي ينصبها أعداء الإسلام في أكثر من مكان وأكثر من أسلوب ، ومن ثم تؤدي القيادات والشعوب دور مصارعة الثيران الدامية ضد الخرقة الحمراء لا ضد الذي يلوّح بها بمهارة اللعبة دائماً وهي في غباء الثيران لا تستفيد من تجربة ولا من أهوال النكبات والنكسات في أكثر من مكان ودونما أية استفادة ، بل انها في أحيان كثيرة تهيج عاطفياً ثم ترفع لها نفس الخرقة وتكرر ، هي ، نفس الأخطاء .

إن من أهم شروط النجاح هو الوعي السياسي بدقائق وأسرار خطط العدو ومراقبته فكراً وتطبيقاً وتحركاً حتى تتجنب المسيرة الوقوع في «الشراك» والفخاخ المبثوثة بأكثر من أسلوب وأكثر من لون .. وعلى ذلك الأمثلة العديدة : أخرج العدو الكافر على سبيل المثال ، «أسلوب الانقلابات العسكرية» بصفتها «حركة إنقاذ وقيادة» وحتى بعد انكشاف الدور في بلد مّا يكرّر نفس الأسلوب في أكثر من بلد آخر فوقعت الحركات الإسلامية والجماهير المسلمة في «الفخاخ المنصوبة» دون أن تدرس التجربة في ذلك البلد وتستخلص الدرس من انكشاف خطة المستعمر الكافر وبهذا الغباء لم يحتج العدو حتى إلى تغيير في خططه .. وفي الخط الفكري رفع العدو في أكثر من بلد «العصبية القومية» و «الاشتراكية الثورية» أو «العلمية» أو .. أو .. أو .. الخ .. في أكثر من بلد مسلم وكأن حقل التجارب هذا كان على أرانب لا تتعظ ولا تستخلص الدرس فأثمر ذلك كله فرقة وتناحراً وانقساماً وتجزئة ودماءً .. من أبشع ما شهده تاريخ هذه الأمة ولم يعتبر أحد من هذه الأمة بأحد فكررت الأمة مأساة ملوك الطوائف في الأندلس .

وإذا كانت الحركات الإسلامية المعاصرة قد تبينت الخط القائم على «العلم المستيقن» والذي ثمرته سعادة الدنيا والآخرة .. فرفعت في مقابل «العصبية القومية» علاقة «الإيمان» تلك العلاقة التي تسمو بالإنسان عن علائق التراب والدم والصراع إلى علاقة أسمى وأشمل وأنفع والتي هي الغاية لتقدم الإنسان ونضجه العقلي ، كما تبنت «العدالة الاجتماعية» و «التوازن المالي» ، ووضعتها مقابل الاشتراكية بأسمائها المتعددة في تلك النظم الجاهلية ، تلك النظم التي أدت وتؤدي إلى «مجتمع قطيع العبودية» الذي يفقد فيه الإنسان كرامة إنسانيته وينحط إلى معنى القطيع ومن ثم معنى المسلخ ، فيقوم دائماً على علائق الحقد والكراهية والانتهاز .. والإسلام وحده هو الذي يستطيع نظامه تأمين مجتمع الكفاية والعدل وحرية الإنسان في نسق واحد .. فيقوم دائماً على علائق : الأخاء والود

والحب والإيثار .. والمنهج الإسلامي – عملياً – يعطي الدليل والتجربة الإسلامية الراشدة في مجال التطبيق الواقعي أكبر برهان على ذلك إذا كان ذلك كله قد تحقق فكراً ، إلا أن الوعي السياسي والتطبيقات العملية لهذا الوعي كان ينقص «الحركات الإسلامية المعاصرة» فسيقت إلى معارك بين قوى الجاهلية المختلفة المتصارعة لتكون هي الضحية التي لا ناقة لها في المعركة ولا جمل ، كما حدث في مصر والباكستان .. وفيما سوى ذلك من بلدان المسلمين ..

(و) محاولة فرض الفهم الواحد فيما يحتمل تعدد الافهام :
ذلك أن الخلاف في الرأي لم يكن خاضعاً لقاعدة «الاجتهاد في الرأي» ، والحرية في الخلاف ضمن ما ليس من الأصول القطعية «النص والدلالة» ، وضمن احترام الآراء المختلفة فيما سوى ذلك فيما هو قطعي النص ظني الدلالة أو ظنيهما معاً ، أو ما هو في مجال الرأي فذلك مجال اجتهاد بالنسبة للأفراد المجتهدين ومجال تنفيذ عام ، بالنسبة لما تسفر عنه أغلبية شورى المؤمنين ، ولا حرج على من رأى سوى ذلك فالجميع يظلهم الحب في الله واحترام الاجتهاد المخالف .

(ز) بتخطي أسلوب العمل في المجتمع المكي – أي المجتمع الجاهلي الذي كانت عليه «مكة» ، والذي عاد اليوم إلى الأرض بعد أن نقضت عرى الإسلام عـروة عـروة ، وأصبح القـابض على دينـه «كالقابض على الجمر» .. [٢١] بتخطيه – أي أسلوب العمل في المجتمع الجاهلي المكى – إلى أسلوب العمل في المجتمع الإسلامي الذي قد تحقق في المدينة ، والذي يجب أن يعاد إلى الأرض نوراً ورحمة للعالم كله ، بتخطّيه قبل الإعداد الكامل له ، كان ذلك بمثابة «البناء الفوقي» بلا عمد .. وبمثابة القفز إلى «نتائج بلا مقدمات» .

يوجد اليوم «مسلمون مؤمنون» حقاً وصدقاً ، ولن تخلو الأرض منهم على الحق ظاهرين ، وهم مادة العمل لبناء دولة الإسلام وسلطانه على الأرض ولكن هذه الدولة لا توجد اليوم على الأرض ، وواجب إعادة إخراجها للناس .. يقع

على عاتق طائفة الحق هذه خاصة ... فواجب كل مسلم يعي معنى إسلامه أن يجاهد ويضحي لكي تعود ، ولكي يتجدد بعودتها دين هذه الأمة ، ويعود بها منهج الإسلام نقياً صافياً كما كان في عهد الرسول .. إن واجب هذه الفئة المسلمة هو العمل حتى تُحَقِّق ما حقّقته الفئة المسلمة الأولى ، والمؤمنون الأُول .. إن ذلك هو الواجب الأول لكل مؤمن ومؤمنة على وجه الأرض ...

ما تحقق في المجتمع المكي

لقد حقق أسلوب العمل الصحيح ، في «المجتمع المكي» ، للمسلم مجتمعاً وقيادة ونهجاً وحركة .. غايتين أساسيتين هما :

- العزلة النفسية ...
- وبناء مجتمع جديد متميّز ...

تحققت «العزلة النفسية» عن «المجتمع الجاهلي» ، وعدم «الانفصال العملي عنه» في الوقت نفسه ، وذلك باتخاذ «فلك خاص» هو «فلك الإسلام» ، ومن ثم تصعيد جاذبية هذا الفلك التي لا تقاوم بهدف أن يجتذب إلى عالمه الأسمى خير العناصر الإنسانية وأنقى النماذج الفريدة وأكملها استعداداً للنور ... وبذلك تحقق للمسلم «العزلة النفسية» و «إيجابية الاختلاط» في الوقت نفسه وذلك بالتأثير فيه – أي المجتمع الجاهلي – لا بالتأثر به .. نفسياً : منعزلون عنه .. عملياً : مؤثرون فيه .. وبناء «مجتمع جديد متميّز» ، يحافظ على خصائصه الجديدة السامية وما يميّزه وما يمكّنه لأن يعمل بفعالية في المجتمع الذي تم انفصاله عنه ، في الوقت ذاته وكانت قواعد هذا البناء ومعالمه :

(أ) **المؤاخاة والنظام** :

المنبثقان من شهادتين* يؤديهما الإنسان فيهما منهج شامل للكون والإنسان والحياة ، وذلك بالتطهّر من أدران الشرك ، وبإخلاص العبودية لله ، ومن ثم تلقى منهج الإيمان عنه ، وعمل الصالحات ، والتدريب الروحي

(*) لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والمبدي على التزام الحق ، هدفاً والصبر وسيلة ، وتعميمهما على الآخرين في حركة مستمرة دائبة .. ذلك المنهج الشامل الكامل الذي تكفّل به الوحي : شرعة ومنهاجاً ..

(ب) التحرر الاقتصادي :

في ضوء حدود تعاليم الله وما رسمته للمجتمع الجديد من بناء علاقات تكافلية تعاونية بين أفراده وما وضعته من تنظيم اختياري للمال ، وذلك قبل قيام الدولة في «المدينة» ، هذه الدولة التي أضافت إلى «التكافلية» الموكول أمرها إلى الضمير ، «الواجب التشريعي» الملزم للمسلم أن يقوم به طوعاً أو كرهاً ، ولا يمكن اليوم أن تحقق الجماعة المسلمة شيئاً فيما أمرت به ما لم تستقل عن مجتمعات الجاهلية مالياً بادئ ذي بدء ، على أن تضع لنفسها «سياسة مالية» خاصة وأسساً جديدة للمال : «تمويلاً واستهلاكاً» و «تنمية» و «تكافلاً» حتى يتحقق الاستهلاك المعقول والتنمية المنتظمة المتعاظمة «المتناسقة» و «التكافل» و «التكافؤ» لجميع المؤمنين ..

إن على الحركة الإسلامية أن تسارع فتضع برنامجاً مالياً تقوم على تنفيذه بإخلاص ، وذلك لتنمية أموال المسلمين بشكل عام ، وأموال الحركة بوجه خاص ، والاستفادة من كل ذلك في إعداد القوة الموجهة والمستخدمة لصالح «العمل الإسلامي» .. وعليها أن تهتم كذلك «بالزكاة» على أسس «جماعية تنظيمية» ، وأن تعيد إلى الوجود «بيت مال المسلمين» : (مؤسسة التأمين والضمان العامة الكبرى) ، التي هي مصدر «الخدمات العامة» وبناء «الصالح العام» ..

(ج) التحرر الثقافي :

وقد مثّلته «دار الأرقم» [٢٢] حيث تم تهيئة المناخ الفكري الإسلامي الذي نأى المسلم الحق به عن مناخات الجاهلية الموبوءة العفنة .. إذ لا يمكن لمجتمع ذي خصائص فريدة مميّزة أن تقوم له قائمة ، عندما تنشأ أجياله مرباة على ثقافات وعادات معادية لوجوده من أساسه .. ولقد

كان مصدر الثقافة والتوجيه والإلزام الفكري والعلمي والعملي ، لمجتمع الإسلام الأول ، هو القرآن الكريم وتعاليم رسول الله ..

واليوم تحاول الجماعة المسلمة ، هنا وهناك ، أن تخرج من ظلمات الجاهلية المعاصرة ، دون أن تعمل شيئاً في مجال « البناء الفكري » و « التربوي » و « العلمي » ، بعد أن تلقي بأجيالها فريسة لمصادر ثقافية معادية لها أو تتركهم ضحية لمفاهيم ميّتة ما أنزل الله بها من سلطان ، وتستوي في ذلك جميع دور الحضانة والمعاهد والمدارس والجامعات ، وكل وسائل النشر والإعلام والإذاعة وما سواها من الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية ..

يبخل مدّعوا العمل الإسلامي – وهم كثر – على بناء صرح ثقافتهم وإنقاذها من مناخات الجاهلية الضاغطة ، ثم يسترخون في مصيف أو وظيفة مّا أو يكتفون بإلقاء محاضرة مثيرة أو خطبة حماسية أو تأليف كتاب يعتمد على إثارة العواطف وتحدّي «الناحية العقلية» و «الجانب العملي التطبيقي» ويمضون أيامهم ، بعد ذلك ، مسترسلين في «أحلام يقظة» عن «الدولة الإسلامية المنشودة» ، والحديث .. مجرد حديث عن الحملة المسعورة لأعداء الإسلام ، دون أن يقوموا بأي تحرك إيجابي في الاتجاه الصحيح ..

إن على المخلصين العمل على عزل أبنائهم عن «معامل المجتمعات الجاهلية» المظلمة ، وتحويلهم – في غير عزلة عن العلم وأساليبه المتجددة – عن هذه المعامل إلى مراكز إشعاع للنور الإسلامي المتكامل بصحة «العقيدة» و «التشريع» و «سنن الكون» و «حقائق العلم» .. «حقائق الكتاب المقروء» وكتاب «الكون المدروس» حتى يبنى الفتى المسلم ويقوى على مواجهة أي فكر مناقض لما هو عليه ..

لِتصغ الحركات الإسلامية والعاملون للإسلام إلى هذه التساؤلات التي نوجهها اليوم إليها ، ولتحاول الإجابة العملية عليها :

– أين هي مراكز «التخطيط الفكري» و «البحث العلمي» ، التي ترسم مناهج العمل تحت راية القرآن ... ؟

- أين هي المدرسة ، الموجودة في كل بلد فيه جماعة إسلامية ، والتي أعدت لتربية أولاد المسلمين – بنين وبنات – تربية الإسلام الصحيحة ...
- أين هو المسجد الجامع ، ولِمَ لَم تعد المساجد كما كانت منطلقات للعمل ومراكز للتوجيه والتنظيم والتعبئة ... ؟

وكيف يسوغ لمسلم أن يرسل أبناءه وبناته إلى مدارس يخرج* منها هؤلاء وقد صبغتهم اليهودية أو النصرانية أو الشيوعية بلونها أو بلا لون ، باسم العلمانية المدعاة وسواها من الافتراءات الضالة والادعاءات الباطلة ... ؟ وليست كل هذه المدارس بعائدة إلى أجانب وأعداء للإسلام فقط بل هنالك أيضاً مدارس يدّعون ويزعمون أنها إسلامية ... !! والحقيقة أنها ليس لها من الإسلام غير التسمية !! فمناهجها ومنشوراتها وجميع دراستها مستوردة من غرب أو شرق ، وبعضها : طرق دراستها وأساليبها يسودها الجهل ، فلا ترتفع إلى مستوى عصرها روحاً وإخراجاً وجوهراً ومظهراً ، وهي بأوضاعها حجة إفلاس لا إشعاع فيه ولا جذب إلا ما رحم الله ، وكذلك فإن أصابع الماسونية اليهودية المتآمرة من وراء التسلل إلى قيادات وزارات المعارف التي تشرف على هذه المدارس هي من وراء كثير ممن أطلق عليه لقب «مسؤول تربية وتعليم» ، إن كثيرين من العملاء المأجورين أو المغفلين النافعين – على طريقة ذلك النقد الذكي عند علمائنا حين ترجموا لأمثالهم ، فقالوا : «وكان رضي الله عنه مغفلاً» – من أولئك العاملين في أجهزة النشر والإعلام ، المقروء والمسموع والمرئي ، وأقسام البرمجة التعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية .. أو معظمهم في بعض البلدان – ينفذون

(*) وليس معنى ذلك دعوة إلى التوقف عن الدراسة بل هي دعوة إلى البدائل الإسلامية في مرحلة التأسيس التربوي والتعليمي للشبيبة المسلمة ورفع الإرهاق عن المؤمنين الذين يحاولون إبقاء روح الشعلة الإسلامية حية في نفوس أبنائهم عن طريق ما يبذلونه من جهد تربوي وتعليمي في البيت لا يغني عن وجوب تحقيق ما أشرنا إليه . ومن الإنصاف للحقيقة التاريخية أن نذكر التجربة المضيئة للأستاذ يوسف العظم في «مدارس الأقصى» وبدايات هنا وهناك في ديار الإسلام المترامية الأطراف .

عامدين أو جاهلين مخططات لا تعود بالخير أبداً على الإسلام والمسلمين ..

ومن وسائل الأعداء الماكرين ، إضعاف مناهج التعليم في العديد من البلدان المتخلفة المستضعفة ، وذلك لكي يصير خريجو دور العلم أنصاف متعلمين .. فيكونوا طعمة لمراكز الظلام ، كلّ صرعى الأمية المبهورة بزخرف القول التي تقدمه معامل «التوجيه الفكري» بكل أنواعه .. تلك المعامل المدعومة بقوى الشر المبثوثة شراكها الخادعة في كل مرصد وسبيل ، فيقع فيها الكثير من الناس وبذلك يكونون عوناً للأعداء في نشر الفوضى والرمي بمستقبل الأمة ومسيرتها في متاهات الظلام ، مرددين عليها شعارات طنّانة ونظريات فاسدة جوفاء .. داخل المصيدة الكبرى ..

لا يمكن الخروج من الشراك الخادعة وابتداء المسيرة الحقة ، قبل الانعتاق من اسار العبودية ولن يكون انعتاق ما لم تحقق الحركة الإسلامية هاتين الغايتين :

- التحرر من أغلال العبودية الاقتصادية*..
- التحرر من سلاسل العبودية الثقافية وكابوسها ..

إن الحقيقة ودروس التاريخ تهتف بكم : أقيموا العزل الصحي لمجتمعاتكم بعيداً عن طاعون الجاهلية ، ولكن ليس على طريقة النعام الساذج الذي يكتفي بدس رأسه في الرمال اتقاءاً للخطر وإنما عن طريق : البناء والإيجابية ، والمواجهة والاستفادة من كل ما هو نافع وصحيح ، وتطعموا بمصل الحياة الواقي ، بالضمير الكاشف لنفسه ولما حوله ، والعارف لما يريد وما عنده وعند الآخرين ، لتتمكنوا من إعداد القوة اللازمة لإنقاذ البشرية من الوباء والبلاء .. حتى تكون المسيرة صحيحة راشدة ومن ثم :

(*) مما يبعث نور الأمل المحاولات الجادة لبنوك إسلامية هي مؤشر على وعي إسلامي بدأ يستأنف سيره ليعطي للعالم نموذجه العادل بعد غياب منذ عصور الانحطاط وأفول الحضارة الإسلامية التي قادت العالم .

- أقيموا في مجتمعاتكم علاقات مالية جديدة ، استهلاكاً وتنمية وتكافلاً ، علاقات تنبثق من وحي عقيدتكم وهداها ، والا فستظلون أسرى نظم مالية جاهلية في كل مؤسساتكم ومعاملاتكم ، مع الحياة ، ومع أخوة العقيدة ...
- أقيموا محاضن نواة أجيالكم في روضات ورياض نقية نظيفة من كل سوء وغش ، واجعلوا العلم والثقافة وكل ما يتعلق بالفكر إسلامياً خالصاً منطبقاً على زمنكم ، ووعياً كاشفاً لما حولكم .. ومن هذه البداية عليكم أن تنطلقوا إلى تحقيق وسائل القوة وقد أعددتم أهم عناصرها وهو « الإنسان » الذي أُحسن إعداده قوة وعقلاً ونفساً وروحاً ومالاً ، في اتجاه ما أطلقت عليه العقيدة الإسلامية بحق « الجهاد » فتكون غايته من الحياة العمل للعقيدة الإسلامية والجهاد في سبيل نشرها ونصرة أبنائها .. شعاره المقدس إحدى الحسنيين : « النصر أو الشهادة » .

ومما هو جدير بالذكر ونحن بصدد تسجيل سلبيات الحركة الإسلامية أن نُذكِّرها أن الإعداد وسيلة وليس غاية يستغرق الزمن وأن من هذه السلبيات الاستغراق في الإعداد وعدم استخدام القوة المتاحة ، فالإعداد لأي فكرة لا يعني إقناع الأغلبية إلا في حالة واحدة هي توفر حرية الدعوة والبلاغ ، أما في حالة تسلط الطواغيت ، وقوى الإكراه فمن العبث ترك الدفاع عن الحرية ، وتحطيم العوائق التي تحول بين الإنسان وحقه في حرية الاختيار .

إن مشروعية الجهاد ، والخروج على الظلمة - الثورة - تتم بل تكون واجباً مقدساً عند غياب الحرية ، وتسلط آلهة مزيفة يكون لديها القوة على الاستعباد والإكراه وسلب الكرامة الإنسانية من بني الإنسان .. ذلك الجهاد هو ما عمد إليه سيد شباب أهل الجنة وأئمة آل البيت وأيد موقفهم هذا الأعلام من أئمة المذاهب الإسلامية الكبرى في هذه الأمة ، فالإمام أبو حنيفة وصف خروج زيد بتلك الكلمة الرائعة :

« ضاهى خروجه خروج رسول الله يوم بدر » . (٢٣)

وأيد ثورة النفس الزكية في المدينة وابراهيم الإمام في البصرة فنصح الناس

وحثهم على مبايعة ومساندة الإمام ابراهيم وأفتى بأن الخروج معه أفضل من الحج النفل خمسين أو سبعين مرة . (٢٤) بل لقد قال لرجل اسمه أبو اسحق الفزاري : « مخرج أخيك أحب إليّ من مخرجك » يعني مساندة أخيك لابراهيم بن عبد الله أفضل من جهادك الكفار . (٢٥)

وقد نقل لنا أبو بكر الجصاص والموفق المكي أن البزاز صاحب الفتاوى البزازية وهم من أجلّة الفقهاء آراء أبي حنيفة هذه ومعناها الواضح الجلي أن الجهاد لتخليص النظام الداخلي للمجتمع المسلم من سطوة القيادة المنحرفة عند أبي حنيفة أفضل من قتال الكفار خارج المجتمع المسلم . (٢٦)

وقد لاقى الإمام أبو حنيفة في سبيل ذلك الأهوال ومات في السجن مضيئاً للأمة الطريق .

وهذا الإمام « مالك » ينقض بيعة الإكراه الوراثية « لأبي جعفر المنصور » تأييداً لثورة « النفس الزكية » في « المدينة » فأفتى ببطلان البيعة جبراً ، أو الحلف كرهاً ، أو الطلاق قهراً (كان العباسيون عند أخذ البيعة يستحلفون الناس بطلاق نسائهم إن هم نقضوا بيعتهم ولذلك ذكر الإمام مالك مسألة الحلف والطلاق كرهاً إلى جانب مسألة البيعة حتى لا يستغل العباسيون الدين في ظلال الإكراه والتحريف) وقد جُلِد حتى خلعت كتفاه . (٢٧)

وهذا الإمام الشافعي « محمد بن ادريس » يؤتى به مغللاً في أصفاد الحديد من صنعاء حتى بغداد لاتهامه بالمشاركة في الإعداد للثورة الإسلامية لتصحيح الانحراف في الحكم وموالاة الثائرين .

ولم يتنازل الإمام أحمد بن حنبل عن حرية رأيه وحقه في الفهم ولو واجه الموت في سبيل ذلك الثبات الرائع .

إن التاريخ علّم البشرية أن الطواغيت لا يتنازلون عن تسلطهم على الناس إلا بالقوة ، وإذا لم تستخدم ضدهم استخدموها هم للتنكيل والإرهاب والتعذيب المهول ينزلونه بمناوئيهم في الرأي .

ولقد كان لبعض الحركات الإسلامية قوة هائلة من المؤمنين الذين تربوا على الخلق الكريم ، ومن التنظيم الدقيق الرائع للخبرات والمال شملت مختلف قطاعات المجتمع بما في ذلك قوة الجيش والشرطة والمتعلمين إلى درجة تكفي لتطهير وجه الأرض من كل جبار لا يؤمن «بيوم الحساب» .

ولو نظرنا إلى تلك العصابة المؤمنة يوم بدر وقلة عددها في مواجهة ثلاثة أضعافها عدة وعدداً لتعلمنا الدرس في الاستفادة من القوة المتاحة ولو كان أعداؤها ثلاثة أضعاف .

ونتيجة لعدم استخدام القوة المتاحة كانت ضحايا الحركة الإسلامية وما لاقته من أهوال ما لا يكاد يتصور حتى في أشد العصور وحشية وظلاماً وكان من الأفضل أن يتساقط الشهداء في ميادين قتال وقد أرعبوا الطواغيت ولقنوا الأمة درساً يهز أعماقها فلا تستخذى للمجرمين ، ولا تستنيم للطاغوت .. إن ثورة «الحسين» واجهت قوى الشر مجتمعة في قلة من العدد والعدة وفي وضع لا أمل فيه لنصر إلا نصر ضمير هذه الأمة حتى لا تستعبد وتسترق وتذل بعد أن هداها الله إلى الإسلام ، وما تزال ثورته المتوهجة بتعاليم القرآن وبيانات جده «رحمة الله المهداة للعالم» تسحب الطواغيت قتلة حرية الأمم ومسترقي الإنسان تسحبهم على وجوههم وتحيل جبروتهم إلى رمال اشتدت به الريح في يوم عاصف .

إن الحركة الإسلامية مدعوة إلى استخلاص الدروس وهي على كل حال بفضل الله وكرمه في دائرة المثوبة والأجر في حالتي الصواب والخطأ فإن اجتهاداتها هي لوجه الله لإقامة موازين العدل على الأرض .

المجتمع المدني : «قيام الدولة وتطبيق كامل المنهج» :

وهكذا ، بعد أن ينتهي أصحاب المسيرة من تحضير مثل هذه البداية وإعداد مثل ذلك النشء ، يحق لهم بعد ذلك أن ينتقلوا إلى أسلوب العمل في المجتمع المدني .. إلى مراحل التطبيق العملية ... المراحل المبنية على الدرس والاستقصاء ، والقائمة على التصميم الجيد والتخطيط الصحيح ، وضمانة الاستمرار في هذا

السبيل ، وعلى هذا النحو يسير العاملون إلى أن يوجدوا داراً للإسلام* تتوفر فيها أخوّة المؤمنين الايوائية والنصرة والحماية مستعيدين الصورة المشرقة التي تحررت من إسار المكان .. أي مكان .. ولو كان بيت الله العتيق ، باحثين في الأرض عن التربة الصالحة للغراس الطيب والحماة المخلصين للدار ، أياً كانت ، وفي أي موقع صالح على هذه الأرض متخذين رسولهم المعلم والقائد أسوة حسنة ، من مغادرته لمكة المستعصية على غراس الرسالة إلى يثرب النائية !! ولكنها المستجيبة للحق والتي تهيأت لتكون مكاناً ومنطلقاً لنور شمل العالم ، وحينذاك عرفت باسم «المدينة» التي قام فيها «مجتمع الإسلام» وطبق على كل شأن من شؤونه ، مجتمعاً ودولة وأرضاً ، منهج الله في الأرض يسير على هداه ويستضيء بنوره .. حينذاك ابتدأ «أسلوب العمل المدني» تطبيقاً «لمفصلات التشريعات» وتحريراً للبشرية من اسار العبودية لغير الله ومن ثم إدخالها في مجتمع السلم العالمي الأكبر بعد تأمين قيام دار الإسلام ودولة الإسلام .. تلك التي بنى أسسها المتينة أسلوب العمل المكي الناجح المظفر القائم على أسس «العلم المستيقن» ، وأخرجها بعد ذلك للناس نموذجاً متكاملاً «تطبيقات العمل المدني» . ستظل معالم تلك الخطة الأولى للعمل الإسلامي قدوة حسنة للمسلمين العاملين كلما تعين عليهم العمل لتجديد الإسلام وإخراج «دولة القرآن» إلى واقع الناس ...

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢٨)

ويوم تقوم هذه الدار تنطلق الجموع المؤمنة في الطريق الموصل ... وحينذاك لا تكون فتنة في الأرض ... وتتحرر الإنسانية من كل عبودية للمخاليق ... ويقوم مجتمع يكون قدوة ومثلاً أسمى للبشرية ... حينذاك ... وحينذاك فقط :

﴿ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (٢٩)

(*) نقصد بدار الإسلام «المكان الذي تقرر الحركة الإسلامية العالمية صلاحيته ليكون نقطة انطلاق لقيام دولة الإسلام التي يجب أن تكون مركز تجمع لقوى العاملين الإسلاميين وتنظيماتهم وهيئاتهم المختلفة في جميع أنحاء الأرض .

تلك هي محصلات القرن الرابع عشر الهجري !!

ولو كان العقل والفهم والعلم هي الأسس التي يقوم بها وعليها التفكير والتخطيط وساد علم «إصلاح المجتمع» محاولات المسلم المعاصر في ضوء مركزية فكرة رئيسية وأساسية تنبثق عنها سائر التوجيهات الفكرية وتدور في فلكها ، وهي الموجهة والموحية – لو كان ذلك كله قد توفرت شروطه لصنع المسلم المعاصر مرحلة التقدم نحو بناء حضارته بثباتٍ لا تزلزل معه ، وسيرٍ إلى الأمام لا تراجع فيه ، حيث يخلق شروط هذه الحضارة أولاً ثم تقوم هي كنتيجة حتمية للمقدمات الصحيحة لها ، وبذلك تشرق على العالم شمس حضارةٍ ... العالمُ كله في حاجة ماسة إليها ..

إن النتائج دائماً ثمرة المقدمات .. إنها ثمرة البذور ونتيجة لها .. ولكن مناخ عصور الانحطاط وما أدى إليه من القابلية للاستعمار ، ومرحلة الاستقلال الشكلي والحركات الثورية الزائفة قد جعل هذا المناخ ينعكس على كل فرد في المجتمع فأتى على «الصلات الاجتماعية» وخلق اليأس واللامبالاة ، وجعل قانونه هو قانون «العهن المنفوش» أو «الرماد» الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف ، هذا هو الكائن المعزول عن حقائق الحياة «جزيئي العهن والرمال» الذي لا يبني شيئاً وذلك هو المجتمع المكون من خواء يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ...

والآن ... والقرن الرابع عشر في أفق الغروب ... قد دار الزمن دورته أمام من يعقل ويسمع ويبصر غاشية الغزو الفكري .. وقال التاريخ دروسه البليغة ... هل لمفكري هذه الأمة أن يراجعوا قائمة الحساب – الأرباح والخسائر !! – للقرن الرابع عشر الهجري .. ؟ وأن يتتبعوا جذور التغيير نحو الأسوأ أمام قرن كامل منذ صيحة «جمال الدين الأفغاني» في النائمين ؟ .

أين نقف اليوم بعد تكشّف الزيف أمام التجارب المرة ؟؟ وكأنما التاريخ يشير لأصحاب الرشد : «ان هاتوا برهانكم ..» .

هذا منعطف تاريخي .. ألا وهو هزيمة «الغزو الفكري أعلى مراحل الشرور التي مرت بها هذه الأمة» قدّمته «السنن الالهية» ، فهل تعيد الأمة الحساب

بتجرد للحق ، بما وهبها الله من عقل وعلم وفهم ، فنحن اليوم في منعطف تاريخي يمكّننا من ذلك .. فهل لنا أن نضع معالم طريقنا نحو القرن الخامس عشر الهجري .. ؟؟ هل لنا أن نكشف بأمانة ونزاهة وعلم عن :

(١) أسباب أسوائنا لنتجنبها ...

(٢) وأسباب علو مكانتنا وتوفر كرامتنا وقوتنا لنأخذ بها ...

هذا ما سأحاول ، بعد الاستعراض التاريخي لسير هذه الأمة الذي قدمناه ، أن أطرح «أسباب السوء» الذي كانت نتيجته تقدم غيرنا وتأخرنا .. !!

نطرحه أمام مفكري هذه الأمة ليتناولوا : أساس الموضوع بالدرس والبحث واستخلاص النتائج ، ففيهم – والحمد لله – الكثير الطيب الفاقه بعقل وعلم ..

أبعاد السوء

البعد الأول:

الانحراف في الحكم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

(سورة الرعد ـ آية ١١)

إن قانون «إصلاح وتبدل المجتمعات» نحو الأحسن ، أو تغيير المجتمعات نحو الأسوأ هو خاضع لقانون تغيير ما بالأنفس ، ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٣٠)

وان هذا التغيير نحو الأسوأ .. ! لا يصيب الأمة جملة واحدة ، وانما يسري في كيانها وتتعدد أسبابه وعوامله حتى يشل قواها وتصبح خارج «دائرة الحضارة» .. وعلو المكانة والتأثير على أمم الأرض .. ويوم تترشح أمة بمجموع العوامل التي تجعلها أفضل من غيرها ، فمبدأ «قانون الصلاحية العامة» يحلّها محل الأمة التي اختل ميزان الصلاحية فيها لصالح الأمة الأخرى ..

هكذا تداول الناس الأيام ...

حضارات اندثرت من التاريخ ، فلا يمكن لها عودة أو حياة .. وأمم تخرج من الدورة الحضارية لتعود إليها يوم تتوفر لها عوامل العودة ...

والخروج من الحضارة يقتضي الزمن الطويل ...

والعودة إليها يقتضي الزمن الأطول ...

ومن الممكن التحكم في الانهيار ...

ومن الممكن السرعة في الأخذ «بأسباب الحضارة» ...

ومن الممكن البطء في ذلك كله ...

وكل ذلك في ميادين «الإيجاب» و «السلب» .. الدخول في الحضارة أو الخروج منها ميدان ذلك كله هو «النفس البشرية» وما تقوم به من التغيير نحو الأحسن أو الأسوأ ...

وأمتنا الإسلامية اتيح لها «النموذج الأكمل» لأرقى حضارة عرفها الإنسان .. فهي من النواحي الاجتماعية والإنسانية في الذروة ، وهي من نواحي «التقدم الحديث» واضعة مقوماته وأسسه ، وهي التي لولا ما أصابها من انحراف ،

لكانت هي المخرجة له إلى دنيا الواقع ، يعرف ذلك دارسو «أسس الحضارات» و «تطور العلوم والأمم» ...

بإستقامة النفس العربية واستعدادها للأسمى و «الأحسن» كان منها : (خير أمة أخرجت للناس) .. تقود البشرية بالخير ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتغرس طمأنينة القلب ، وهدوءه وسلامه في كل نفس ...

و «بالتغيير» نحو «الأسوأ» بدأت تعاني داخل مجتمعها بأس بعضها بعضاً ، وتسلّط «الطواغيت» على أخيارها ، ولكن ما حولها من الأمم كانت أسوأ منها ، فظلت لها المكانة الأولى ...

كانت نقطة البداية في الانحراف : في «نظام الحكم» فقد تحوّل من «الاختيار الحر» و «شورى المسلمين» إلى الابتزاز بالسيف والغلبة والظهور والقهر .. بدأ بالإنحراف في الحكم : «الاستبداد السياسي» فتم بذلك انحلال «الرابط الاجتماعي» القائم على إرادات حرة للأمة .. وبلغ ذروته صلة العبد بربه (الصلاة) فتركت من كثيرين يحملون اسم الإسلام اسماً وهم لا يصلون ، وتم بذلك الانحلال الشخصي للفرد مروراً بعدم صرف الحقوق لأهلها – الزكاة – بصفتها التأمين العام للمجتمع فتم بذلك ضياع «معنى العدل» و «تعاون المجتمع وتكافله» لتبدأ دورة التمزق والكراهية والتربص ...

بذلك إمّحت مقومات : الروح – صلة العبد بربه «الصلاة» ، ومقومات القيادة «الشورى» و «كرامة الحرية» ، ومقومات العدالة : «التكافل الاجتماعي» «الزكاة» و «مجمل النظام المالي الإسلامي» ، لا في الفكر الإسلامي فحسب بل إنه نتيجة لانحراف الفكر عن مساره الصحيح ، وذلك بتغلب قوى الانحراف ، انحلّ نتيجة له الواقع الحياتي للمسلمين ...

فكانت الصورة لو نقلناها إلى معادلة رياضية كالآتي :

استبداد + انحلال + فقر = الانحطاط عن علو المكانة ، وهكذا انحلت تلك المقومات الروحية والقيادية والاجتماعية التي هي من «خصائص الحضارة الإسلامية» التي تتميز بها ، وعراها التي تستند إليها ، ولكل حضارة خصائص ومميزات وعرى تتثبت بها ...

ولقد حدد أسباب الانهيار هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذراً ومنبهاً ، لتتداركه الأمة في أي وقت تفيق من غيبوبتها وخدَرها واستسلامها :

« لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، أولها نقضاً للحكم وآخرها نقضاً للصلاة »[٣١]. وحدد بأحاديث عدة نختار منها خمسة أحاديث – صورة انهيار الأمة بتحديد بداية خطر الانحراف ومن ثم انحدارها إلى مستنقع الغثاء والوهن ! ! ...

وأسباب هذا الانهيار :

- أولها : « الخلافة » .. « ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً »[٣٢] .
- وثانيها : ستكون بعدي « خلافة راشدة .. ثم ملك عضوض .. ثم ملوك جبرية ثم خلافة راشدة » ...[٣٣]
- وثالثها : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ...

قيل : يا رسول الله ، فمن قلة يومئذ ... ؟

قال : « لا .. ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! ! يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا ، وكراهيتكم الموت » ..[٣٤]

بذلك ألقى الرسول الضوء على أسباب الانهيار :

« تسلط الطواغيت » : بترك قاعدة : « أمر المسلمين شورى » ...

« حب الدنيا » عبادة « للمال والشهوات » بترك قاعدة الحق في اكتساب الثروة والعدل في توزيعها ...

« إطلاق الغرائز المدمرة » بترك قاعدة « ضوابط الفطرة » بميزان « الشرع » في تصريف شهوات الإنسان ...

وهكذا سارت الأمة في طريق الذل والهوان .. طريق : « كراهية الموت » في مجتمع فقد الحرية : بعبودية الأتباع لأسيادهم وبالانقياد للطواغيت .. وبالحرص على حياة .. أي حياة .. بديلاً للجهاد وبديلاً لكلمة الحق الشجاعة كذلك .

وفقد « الكرامة » : باختلال « موازين الحق والعدل » ..

وفقد الإنسانية : «بإطلاق الجانب الحيواني فيه» على «الجانب الإنساني منه» فما كان يرفعه نحو الأعالي بلا إخلال بتوازنه تحكمّ فيه ما يهبط به نحو الأسفل بإخلال تام بتوازنه ..

فهل مفكرو هذه الأمة المعاصرون مع «الشورى في الأمر» اختياراً للحاكمين، ومراقبة لهم واستخلاصاً للرأي الرتيد أم مع الحكم الفردي وعبودية المأمور للآمر كما هو واقع السلطان في بلاد المسلمين حيث يخاف الفرد من السلطة أكثر من خوفه من الله .. ؟؟ وحيث تنعدم الرقابة على الحاكم ويحل محلها التملق. وحيث تُخَطَّأ الجماعة ويُصَوَّب رأي الفرد .. ؟؟ إمَّا للتسلط الفردي وإمَّا للدعوة الجاهلة : بأن «الشورى غير ملزمة» .. !

لا تزال فئة من مفكرينا تزيّف الحقائق ، وتجادل تاريخياً عن الذين ظلَموا .. متجاهلة :

﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ (٣٥)

متجاهلة ما نزل بالأمة من صواعق العقوبات الالهيّة الرادعة ...

متجاهلة قوارع حلّت وتحلّ في ديارهم ، وقريباً من ديارهم ...

متجاهلة دروس التاريخ البليغة ...

كل ذلك لأنها تدافع عن واقعها النفسي والعملي والحياتي المنحرف وتفضل الدفاع عن الظلام على الاقتداء والاهتداء بممثلي النور في تاريخها وذلك أوضح برهان على إفلاسها من الحق ..

تلك هي واحدة من عقابيل الداء الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض ...

لقد تضخمت المؤلفات عن المسائل البسيطة الواضحة كالطهارة والنجاسة والوضوء ، ولكن نظام الحكم والقيادة كان مختصراً موجزاً وغير متجاوز غالباً «الأمر الواقع» خوفاً وفرقاً من بطش الحاكمين بأمرهم .. إلا من رحم ربك من علماء الأمة وقليل ما هم ...

ونعود إلى أحاديث الرسول لتهدينا سواء السبيل ...

• ورابع الأحاديث : يبين معنى «نقض عروة الحكم» بريشة السماء ويثبت قوى الحق ويحمل إليهم بشارة الخير والنصر :

«ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الإسلام حيث دار .. ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب .. ألا إنه سيولّى عليكم أمراء يرضون لأنفسهم ما لا يرضون لكم فإن أطعتموهم أذلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم .. قالوا : ماذا نفعل يا رسول الله ؟ قال : كونوا كأصحاب عيسى عليه السلام نشروا بالمناشر ، وحملوا على الخشب فوالذي نفس محمد بيده لموتة في طاعة الله خير من حياة في معصية الله» ..[٣٦]

إن نقض «عروة الحكم» هو افتراق الكتاب والسلطان .. فالكتاب أسس السلطان على الشورى في الأمر ولكن السلطان أقام سلطته على كسروية وقيصرية .. جاء الإسلام ليحرر الإنسان من أصرها وأغلالها وحينذاك افترق السلطان والكتاب !

• وخامسها : يرسم للأمة خطأها وطريق صوابها :

«إنكم على بينة من أمركم ما لم تظهر فيكم سكرتان : سكرة الجهل ، وسكرة حب العيش ، وانكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون في سبيل الله ، فإذا ظهر فيكم حب الدنيا : لم تأمروا بالمعروف ... ولم تنهوا عن المنكر ... ولم تجاهدوا في سبيل الله ...

القائلون يومئذ بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار»[٣٧] .

تلك حقائق الوحي التي نراها اليوم حية في واقع الأمة منذ انحرافها وحتى هذه اللحظات من التاريخ ولكن الإسلام ، بشهادة الوحي الذي ظهر في واقع الناس ، لا يتوقف ولن يتوقف ... ودوران المسلم الحق سيظل حوله فهو فلكه الخاص به يدور به حول شمسه ...

وهناك منهج للسير «الكتاب» .. وسلطة لتنفيذ المنهج «الدولة» وأخبرنا رسول الله في ومضة الغيب المضيئة بالوحي :

«إن الكتاب والسلطان سيفترقان» فأين هو مكان قوى الحق .. ؟ مكانهم

أن لا يفارقوا الكتاب .. مكانهم في الجهاد .. مهما كانت جسامة التضحيات حتى تستقيم الأمة على منهجها الذي يرسم لها سعادة حياتين : أولاها وأخراها ...

وعوائق التاريخ سكرتان :

سكرة جهل ... وسكرة حب العيش ...

وفي ظلمات ذلك سقطوا ... لم يأمروا بمعروف فتستقيم حياة .. ! ولم ينهوا عن منكر فيحافظوا على توازن مجتمع .. !! ولم يجاهدوا في سبيل الله فيخرجوا من ذل .. !!

وهناك مكان لومضات النور من طائفة الحق التي ستعيد للعالم توازنه كما أعادته مرة في التاريخ جماعة الإسلام الأولى من السابقين الأولين من مهاجرين وأنصار .

البُعد الثاني :

التفرّق في الدّين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾

(سورة الأنعام ـ آية ١٥٩)

إن قيام حكم فردي أدى بالضرورة إلى فرق مختلفة يعادي بعضها بعضاً .. ويضطهد عند الإمكان بعضها بعضاً ، وقد اختلط على الأمة الأمر فلم تعد تفرق بين ما يجب « توحيد الفهم له » وما يجوز « تعدد الفهم فيه » ..

فما يجب «توحيد الفهم له» ولا يجوز الاختلاف فيه هو : أن لا يتعدى المجتهد الدائرة الآتية لأنها يقينية لا مجال للاجتهاد فيها :

(١) ما هو معلوم من الدين ضرورة ...
(مثل عدد الركعات في الصلوات الخمس ..)

(٢) ما هو قطعي النص .. قطعي الدلالة ..
(مثل الدليل القرآني ، والسنة المتواترة بما لا يحمل فيهما إلا معنى واحداً) وضعه الشرع له ولا يخرج عن «اللغة» مثل المعنى الكلي للصلاة .. الزكاة .. الحج .. الخمر .. الزنا :

﴿ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (٣٨) ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٣٩) ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (٤٠) ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ (٤١) ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ (٤٢)

لا تفصيلاتها الفرعية التي تدخل في دائرة الفهم الاجتهادي .

(٣) ما هو مجمع عليه :
(وهو ما أجمع عليه مجتهدو الأمة .. وأولو الرأي العليم فيها في ضوء ضوابط الشريعة وأصولها العامة .. وذلك هو سبيل المؤمنين ..

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ (٤٣)

مثل إجماعهم على معنى استمرارية السلطان بعد وفاة الرسول ..

وما عدا ذلك فيجوز فيه اختلاف الأفهام المزودة بالعلوم اللازمة لاستقامة الفهم والقدرة على الاستنباط ولا ضير فيه إذ هو مقصود في شريعة الإسلام لأنه خصب ونمو وتجدد وتنوع ورياضة للعقول والأفهام وميدان مثوبة وأجر .. في حالتي الصواب والخطأ : أجران في الصواب وفي حالة الخطأ أجر ...

ولحكمة آلهية إختلفت الأفهام ولم تخلق على نمط واحد .. !!

ولحكمة آلهية وجدت الأدلة التي تحتمل أكثر من وجه وأكثر من معنى ... حتى تزدهر الحياة وتتقدم وتنمو وتتجدد ضمن القاعدة الإسلامية – «الثوابت والمتغيرات» ...

أما العداء على أساس الاختلاف في الفهم فقط – مع أن القاعدة الشرعية هي أن لكل مجتهد نصيب من المثوبة والأجر – فذلك هو ضيق أفق وجهل بمقتضيات الاجتهاد ، و «بابوية» لا يعرفها الإسلام ، تريد أن تجعل فهمها هو المعصوم حيث «لا عصمة في فهم» .. !!

كثير من الناس يدّعون التزامهم بالكتاب والسنة ، ولكنهم يريدون أن يفرضوا فهمهم لهما على الآخرين وهذه بابوية لا يقرها الإسلام ..

البابا في المسيحية وحده هو الذي يرفع الخلاف بين الآراء المتعددة وهذا ليس في الإسلام ، إذ المجتهد المستكمل لشروط الاجتهاد **رأيه يلزمه شخصياً ولا يلزم غيره** ..

إن هذا العداء والتفرق على أساس الاختلاف في الفهم هـو من التفرق في الدين : «شيعا» الذي يقول عنه الوحي :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٤٤)

وعلى الرغم أن علماء المسلمين اتسعت صدورهم لاختلاف الفهم إلا أنه حدث عند من ضاق أفق فهمهم عن إدراك «الحقيقة» في اختلاف الفهم أنهم لم يعودوا يفهمون عظمة قاعدة اختلاف الأفهام ، وأصبحوا يضيقون بها ولم يعودوا يفهمون حتى اختلاف الفهم بين الصحابة – رضوان الله عليهم – بعضهم مع بعض وآل البيت عليهم السلام كذلك في أيام الرسول وبعده .. أيام «خلافة

الراشدين» وتابعيهم ، ولو درسوا ذلك بفهم وبصيرة لأدركوا : أن القاعدة كانت «احترام بعضهم لآراء بعض» بدون ادعاء ولا تطاول .

قال الإمام يحيى بن حمزة في شرح نهج البلاغة – الديباج المضيء –[٤٥] ولم يسمع من أحد منهم إنكار على صاحبه فيما ذهب إليه ولا ذم ، بل يعتذرون في المخالفة ويقولون : **هذا رأيي** ، **وهذا رأيك** ، ولم ينقض أحد منهم حكم صاحبه . ولا إثم على من طلب الحق فأخطأه ، يقول تعالى :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾[٤٦]

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٤٧] .. ولأن الطلب غير المطلوب وليس كل طالب شيء لا يخطئه ..[٤٨] وذلك واضح وبيّن ..

ولا يعني ذلك عدم وجود الخطأ في الآراء المختلفة ، إنما ادعاء الصواب والقطع به في مسائل خلافية هو ما يكون من آثاره الشقاق والتنازع والاختلاف ، أما ما كان الحق فيه واضحاً فيجب اتباعه والجهر به ، وهو ما أخذ الله على العلماء أن يبيّنوه للناس ولا يكتمونه (الآية)[٤٩] ، وكذلك فإن المجتهد في المسائل الخلافية لا جناح عليه أن يبين رأيه ويبين فساد رأي غيره ، فربما اقتنع غيره بهذا الرأي ، وربما بقي كل على اجتهاده وذلك على بينة من الأمر ووضوح لدى المختلفين في بيان الحجج وذلك أمام الباحثين والدارسين ليبقى مجال الاختيار والاجتهاد مُشْرَع الأبواب ... وقد صرح علي عليه السلام بتخطئة آراء بعض الصحابة في مجلس شوراهم العام حول مسألة فقهية ، قانونية ، وذلك في موضوع المرأة التي استحضرها الفاروق عمر – رضي الله عنه – فأسقطت خوفاً منه ، فلما إستشار عمر في موضوعها ، قال له جماعة من الصحابة «لا شيء عليك لأنك مؤدب» ... فقال علي : «إن كانوا اجتهدوا فقد أخطأوا ، وإن كانوا عرفوا فقد غشُّوك» فلم ينازعه أحد منهم في التخطئة ، وحكم لها على عمر بالدية الغرة[٥٠] .

إلا أن بعض العلماء المعاصرين وعلماء «عصور التخلف الحضاري» لم

يستوعبوا ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز فعادى بعضهم بعضا على أساس من اختلاف في الفهم وبعضهم أراد توحيد الفهم في مسائل لا يمكن توحيد الفهم فيها وهو مطلب يتنافى مع طبيعة التعاليم الإسلامية التي ترفض البابوية وترفض العصمة عن الخطأ في تعيين مدلول النص وتأخذ بيد العقل المستنبط إلى كنوز الشريعة التي لا تنفد وأسرارها التي تتكشف للأفهام لتلبي حاجات المسلم المتطورة في كل الأزمنة والعصور .. مرتبطة بمركز جاذبية «شمس الوحي» دائرة حولها ، فهي بها على صلة خالدة تستمد منها النور والقوة .. إنه يجب التفريق بحسم قاطع بين الخلاف في الفهم في مسائل اجتهادية ظنية ، أو قطعية النص ظنية الدلالة وبين ما يجب توحيد الفهم فيه ، فإن فرض الفهم الواحد فيما يحتمل فهماً متعدداً إنما هو كما قلنا ، «بابوية» ليس لها في الإسلام مكان وهو تقليد أعمى «للمسيحية المنحرفة» التي تخوِّل البابا «حق التفسير الالّهي» والذي بنطقه البابوي المعصوم يتحدد المقصود من النص ، ويرتفع الخطأ ويحرم ما عداه من فهم ...

إنه في رحاب الفكر الإسلامي لا ضير مطلقاً من الخلاف في الفهم أو نتائج البحث ، فما قد يصح عند زيد من الناس قد لا يثبت عند الآخر ... وكل على هدى ، وهذه الخاصية من مميزات الإسلام إذ هو من لازم التجدد والتنوع والحياة .. في إطار أصول ثابتة وضوابط تمنع الانحراف ، وتعصم العقول عن الشطط ...

وهذا هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه يفهم «الخلاف في الرأي» الفهم الإسلامي المستنير في نطاق القواعد العامة التي من شأنها الخصب والنمو والتجدد والامتداد في الزمان والمكان وذلك سر من أسرار خلود هذه الشريعة ، ومجال واسع للعقل الإنساني ليؤدي مهامه التي خلق من أجلها فيثاب ويؤجر ، ويصيب ويخطئ ، ولكن في دائرة من الرشد وبعيداً عن مهاوي الأخطاء المدمرة ، إذ أن الخطأ المهلك لا مكان له في الفكر الإسلامي لوجود الضوابط العامة والمعالم المضيئة في طريق الشريعة ..

عن حميد قال : «قلت لعمر بن عبد العزيز ، لو جمعت الناس على شيء

واحد .. فقال : ما يسرني أنهم لم يختلفوا ، قال : ثم كتب إلى الآفاق أو إلى الأمصار ليقضي كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم »[٥١] .

وهذا عون بن عبدالله يقول : « ما أحب أن أصحاب النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – لم يختلفوا ، فإنهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنة ، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ السنة »[٥٢] .

وهناك ظاهرة معاصرة جانبها التوفيق ألا وهي القطع بالرأي باسم الإسلام وكأنه رأي الإسلام القاطع لا مجرد ما توصل إليه « الباحث أو المرجّح » أو « المجتهد » من فهم ، فهو فهم إسلامي من أفهام إسلامية لا أكثر يحتمل الصواب ويحتمل كذلك الخطأ المأجور .. أما رأي الإسلام القاطع فلا يحتمل إلا الصواب ، والصواب وحده ...

وقد نتج عن هذه الظاهرة اضطراب في أحكام شرعية : فكاتب إسلامي يكتب – مثلاً – عن الحجاب أنه الغطاء الكامل للمرأة المسلمة فيقول عن فهمه للنصوص : « الإسلام يرى أن الحجاب هو الغطاء الكامل » ، وآخر يستثني الوجه والكفين فيعلن كذلك : الإسلام يرى .. وكذلك في العديد من المسائل الفرعية والاجتهادية : كالتوقيت والضم والارسال والجهر باسم الله من عدمه في الصلاة ، والتأمين ، وألفاظ « الأذان » إلى مئات المسائل الفرعية في الطهارة والصلاة والمعاملات ، وكذلك في مجالات التفكير ودلائل الآيات والمسائل الاعتقادية مما يحتمل لغة أوجهاً متعددة لا يتعين تأويلها بوجه واحد على سبيل القطع والإجماع معاً ...

ولو تواضع المؤلفون المعاصرون لنسب كل واحد فهمه إلى رأيه واجتهاده ، مقدماً بين يدي فهمه مستندات الفهم وأدلته الشرعية والعقلية .. والفهم والاجتهاد يحتملان الصواب والخطأ ، وفي المسائل التي لا خلاف فيها وحدها وهي وحدها الأصول العامة القطيعة النص والدلالة يعبر عنها برأي الإسلام المطلق وكان عليهم أن يقتدوا بعلماء الإسلام الراسخين من قبلهم الذين يوضحون أدلتهم وفهمهم للدليل فما كان صواباً فمن الله وما كان خطأً فمن عند أنفسهم .

إنه في المسائل القطعية أو المجمع عليها أو ما علم من الدين ضرورة فقط

نستطيع نسبتها إلى رأي الإسلام الذي لا يُخالف .. أما ما عدا ذلك فمجاله الاجتهاد والصواب والخطأ المأجور ...

إنه بسبب هذه الظاهرة : «الإسلام يرى كذا وكذا» في مسائل فرعية اجتهادية قد سببت للمسلمين حرجاً وبدت وكأنها مسائل قطعية لا مجال للاجتهاد فيها ولا خلاف .. وتجاوز الأمر ما هو داخل دائرة الاجتهاد إلى مشكلات أملتها العادات والتقاليد التي لبست ثوب الدين ولم ينظر فيها إلى دلالة النصوص ولا بيان وتطبيقات الرسول والراشدين من أصحابه ...

من تلك المشاكل الإسلامية المعاصرة :

مشكلة المرأة في التعليم والعمل وإدارة المجتمعات :

إن موضوع المرأة هو موضوع ملح بالنسبة للمرأة المسلمة المعاصرة ، فهي بين تيارين : تيار إباحي ، جعل من المرأة متاعاً رخيصاً و «معرضاً» للشهوات ، أو يريد – كما يجري حالياً في المجتمعات التقليدية الجاهلة – بأكثر من أسلوب وأكثر من وسيلة جرها إلى مستنقعات الشهوات الآسنة وراء تغطيات تعتمد الزيف وزخرف القول والادعاء من مثل التحرر وروح العصر وقضية المرأة .. الخ وبين إفراط في رد الفعل جعل منها شيئاً يعيش وراء الجدران وعلى هامش الحياة بدعوى خوف الفتنة . ويذكّرني هذا الإفراط بذلك الذي رأى اقتلاع شجرة العنب لأنه يصنع منها «المسكر» .. إن محاولة «رفع دواعي البلاء والاختبار» الذي يتعرض له الإنسان في الحياة الدنيا لينجح في امتحانه أو يفشل ... لهي محاولة عقيمة إذ «الابتلاء والاختبار» من السنن الماضية على الإنسان لا يمكن رفعها من واقع الحياة .. إنها قائمة في قلب السنن المنظمة للحياة نفسها ، وانما التخفيف من حدة هذه الدواعي بأساليب اختيارية في حدود بقاء القدرة على الخير والشر هو ما تعمد إليه التعاليم .. أما طريقة «اقتلاع» شجرة العنب فلا يعمد إليها إلا الجاهلون بسنن الله كونية أو تشريعية ..

إن موضوع «المرأة المسلمة» حددته بوضوح تعاليم قرآنية وأحاديث مفسرة وتطبيقات في واقع الحياة على عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين ...

إن المرأة المسلمة في نطاق التعاليم وواقع الحياة الإسلامية كانت دائماً في دائرة «الوجود النظيف والمصان» لا في دائرة «الانحلال» أو «الغياب» فهي موجودة ، على أيام النبوة وتنزل الوحي ، في «المسجد الجامع» مركز إدارة الدنيا والدين : «التعليم .. الشورى .. القيادة» .. هي في المسجد موجودة ولكن لها مكانها المعين وباب دخولها وخروجها الخاص بها إلى ساحة واحدة تضم المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وهي تسأل وتستفهم وتناقش وترد :

ولقد نهى الفاروق عمر رضوان الله عليه عن المغالاة في المهور وهو على منبره في مجلس شورى المسلمين العام في المسجد الجامع وأراد أن يعرض على المسلمين رأيه في تحديد المهور فقال :

«ما إكثاركم في صداق النساء ، فقد كان رسول الله وأصحابه والصّداق فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم» ، ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش ، فقالت : لا يا أمير المؤمنين ، نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ، قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ ، قال : وأي ذلك ؟ ، فقالت : أما سمعت الله يقول :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [٥٣]

قال : اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع إلى المنبر فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي ماله ما أحب – قال أبو يعلى – : فمن طابت نفسه فليفعل[٥٤] .

ولقد كانت أمهات المؤمنين يناقشن رسول الله ويراجعنه في حرية وسماح حتى ارتاع لذلك عمر ، فسأل ابنته حفصة ، فأكدت له ذلك ، فحذرها من اللجاج في المناقشة[٥٥] .

وفي الحديبية عمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمشورة أم المؤمنين «أم سلمة» عندما دخل إليها مغضباً ، قال لقد هلك الناس ، وذلك لامتناعهم

عن تنفيذ أمره صلى الله عليه وآله وسلم بيوم الحديبية بعد أن كتب الكتاب في إكمال الصلح فقال للناس : «قوموا فانحروا ثم احلقوا» ، فلم يقم منهم أحد ! فقالت «أم سلمة» : يا نبي الله : اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعوا حالقك فيحلقك ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً(٥٦) ..

وكما كرم الله واصطفى المرسلين .. اصطفى «مريم ابنة عمران» ، وطهّرها واصطفاها على العالمين ومجّد امرأة فرعون التي كرهت الطاغية وعمله في آيات تتلى باقية على الدهر ...

وقال الرسول في خديجة : «خير نسائها خديجة بنت خويلد»(٥٧) . ووصف البتول الزهراء : إنها «سيدة نساء العالمين»(٥٨) ...

ومن تكريم الله للمرأة في شخص الزهراء أن جعل الله ذرية نبيه وكوثره المبارك عن طريق ابنته فكان أبناؤه منها : (تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) .. وقال عن ابنه الحسن : «إن ابني هذا سيد»(٦٠) .

وقال عنها : «فاطمة أم أبيها»(٦١) ، وما كان يقدم من سفر إلا وبدأ بالسلام عليها(٦٢) ، وكان يقوم لها إعظاماً ويقبّل يدها إجلالاً وتكريماً(٦٣) وقدّس غضبها فكان من غضب الله(٦٤) .. وهي بضعة منه يسوؤه ما يسوؤها .. ويسرّه ما يسرها(٦٥) .

تلك هي فاطمة ، امرأة ارتفعت إلى قمة القمم في التاريخ والمجد السماوي الباذخ ، وهي قدوة النساء المسلمات المؤمنات إلى يوم انتهاء دور الإسلام على الأرض .. ولقد أبصر المسلمون كل ذلك ورأوا أن الله في اختصاصه فاطمة بنت محمد بذرية رسوله إشادة بالمرأة في مجتمع كان يقتلها موؤودة في عمر الزهور ، فكرمها في شخص فاطمة بذرية نبيه على غير المألوف عندهم ونهض بأمرها ورفع من شأنها فأخذ العرب من بعد ذلك يحبون بناتهم ويبتهجون بهن ، وقدمهن الله قائلاً :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾(٦٦)

وذكر الله أن كلمته - المسيح ابن مريم - من ذرية إبراهيم أبي الأنبياء عن طريق أمه الصديقة المطهرة مريم بنت عمران :

﴿ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٦٧)

وبذلك لم تعد الذرية عن طريق الآباء فقط وانما عن طريق الأمهات أيضاً ، فكرّم المسلمون بناتهم وأحبوهن وأعزوا ذريتهن وشملت الرحمة والحنان والمودة الفروع في رحامة مقدسة .. وستظل تلك النماذج العالية مثلاً للمؤمنين والمؤمنات يتربون على سنى وهجه في لزوم صراط الله المستقيم* ..

ونوّه الرسول الكريم بشجاعة المرأة المسلمة ممثلة في البطلة المقاتلة «نسيبة» الأنصارية ، يوم أحد ، قائلاً : «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدتها تقاتل دوني» (٦٩) .

يعزز هذا «الوجود العملي» علماً وشورى وقيادة* ومشاركة : قول الله جلت حكمته :

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ يناصر ويعين ويوالي بعضهم بعضاً .

(*) ومن له إلمام بالتاريخ يعرف أين كانت المرأة من قبل نور الإسلام ، وما هي مكانتها بين أمم العالم ، فهي كائن بلا روح عند اليونان والروم ، وهي سبب الخطيئة ومصدر الشر عند المسيحيين ، ومكانتها الدفن حية عند عرب الجاهلية . ويوم سجل الوحي أخطر آيات القيامة وصورها الكوني أبرز جريمة الموؤودة مع أكبر آيات البعث :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٦٨)

* يستثنى في القيادة ـ لطبيعة المرأة الخاصة ـ «الولاية العامة» كالإمامة في محيط الأمة لوجود النص (٧٠) والقوامة في محيط الأسرة «بما فضل الله بعضهم على بعض» في اختلاف الوظائف الطبيعية لكلا الجنسين ، وبما أنفقوا من أموالهم لقدرة الرجل على العمل دون عوائق من حمل وولادة .. الخ من الخصائص الطبيعية ، وقد تضمن النص أيضاً التوجيه والحكمة منه ، فالعمل قيمته تأمين المال والرجل أكثر قدرة على الحصول عليه ويترتب على ذلك واجبات وحقوق ، وكذلك كلما تحول الخصائص الوظيفية دون الوفاء بأدائه .

﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (٧١)

وقول الله في بيان وحدة الأصل : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (٧٢)

وقوله بهذا البيان المعجز : ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (٧٣) ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٧٤) ، ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ الوظائف الطبيعية لكل منهما والمكملة لبعضهما البعض في مسيرة الحياة .. ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (٧٥)

العمل المستمر للرجل الذي لا يعوقه حمل ولا حضانة .. ذلك المال الذي يتكون من العمل وبطبيعة التكوين الرجل أقدر على العمل .. ولذلك عليه واجب النفقة وله القوامة في شركة الحياة القائمة على السكينة والرحمة عدلاً لا ظلم فيه على أحد .. وعشرات الآيات الموجهة إلى العلم والمخاطب بها الإنسان ذكراً وأنثى ، وقول معلم البشرية صلى الله عليه وآله وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٧٦) .. «النساء شقائق الرجال» (٧٧) .

لقد كانت المرأة أول من تلقى كلمه الوحي الخاتمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. تلك الكلمة التي هي النور .. والعلم .. والحياة .

وإن أول شخص مسلم بعد الرسول كان زوجته «خديجة» (٧٨) وهي التي آزرته في رسالته ووقفت بمالها وجهدها وعقلها الكبير إلى جانبه فكانت بحق «المثل الأعلى» للمرأة المسلمة على مر التاريخ والأجيال والعصور ...

وها هو القرآن الكريم يردد في مسامع المؤمنين وصاياه التي تُشْرِك المرأةَ والرجلَ في تعداد الفضائل والمثل الرفيعة والمسؤوليات والواجبات التي تفتح أبواب الجنة ...

ورعاية الإسلام للمرأة في الكتاب والسنة أوضح من أن يغطيها جامد أو جاحد .. ولقد حدد الإسلام مركز المرأة طبقاً لتوزيع المهام في الأسرة وفي المجتمع لا طبقاً لأي نوع كان من عدم المساواة الأخلاقية .. والمرأة هي شريكة الحياة لا تكتمل الحياة بدونها وهي الأم التي يتم في حملها وحضانتها الوجود البشري نفسه ...

إن مشكلة المرأة المسلمة لا يمكن أن تحل إلا في إطار إسلام متكامل يعيد صياغة مجتمعه ومؤسساته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وفق مفاهيم المجتهدين من أبنائه لمنهج الله .

أما الترقيع لأوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية .. بعدت كثيراً أم قليلاً عن المنهج الالهي .. فلن يؤدي للمرأة إلا ثمر الجاهلية البائس التعيس .

إن الجامعات ومجالس الشورى تستطيع أن تأخذ نموذجها من «مسجد المدينة المنورة» ومن «حرم الله» في «مكة» في تطبيق تعاليم الله ورسوله وعلى الصورة التي كانا فيها على عهده صلى الله عليه وآله وسلم ، لا من الأهواء والتقاليد أو الأوضاع الوافدة والجدل العقيم حول الاختلاط بين إفراط وتفريط والتي تواجدت في غياب «التطبيق الإسلامي» بخاصيته الوسط ، بين إفراط الريبة في المرأة واغلاق نوافذ الحياة عليها وتفريط انطلاق الإباحية التي انحطت بالمرأة إلى **درك حيواني** فكانت النتيجة أن فرض أحد الأسلوبين نفسه على مجتمعات المسلمين فرضاً .. ثم أخذ أسلوب التقاليد يصرخ في أصوات مبحوحة لا تجد صدى ولا استجابة وذلك لأنه ينافي الفطرة المنضبطة بالخير التي أيدتها تعاليم الوحي فأخرجت للناس عظيمات النساء يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر لا مجرد متاع يتسلى به الرجل ويتحكم فيه كما يشاء ، وقد بدأت المرأة المسلمة في جامعات مصر تتخذ لها مكاناً خاصاً في قاعة المحاضرات وهي بهذا تستعيد «الوجود» النظيف والمصان الذي طبقته نساء المهاجرين والأنصار في مسجد النبوّة الأول وتلك إشارة بدء للمرأة المسلمة المعاصرة في جميع أنحاء العالم لتتخذ من ذلك قدوة وتفرض سلوكها الإسلامي «النظيف والمصان» على «مجتمعات الانحلال» وكذلك على «مجتمعات التخلف» فرضاً ...

ذلك هو الإطار الذي ينبغي أن تتطور فيه أخلاق الجنسين ضمن حدوده المرسومة ومعالمه الخيّرة ...

واذا كان الإسلام يرى بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة في المجتمع هي : أنهما يكملان بعضهما بعضاً : (بعضكم من بعض) ، فعلى العكس من ذلك الحضارة الحديثة قد وقعت في خطأ علمي جسيم بعيد عن الحقيقة ذاتها وذلك بادعائها الذي لا يستند إلى معطيات العلم والواقع بأن كلاً من الرجل والمرأة صورة طبق الأصل للآخر ورتبت على ذلك أموراً باطلة أثبتت الأيام بطلانها ونتائجها المدمرة على المجتمعات الحديثة نفسها ، فبينما يعطي الإسلام المرأة «مجالات عملها الأساسية» بحسب «وظائفها الطبيعية» وما هو واجب على الرجل القيام به ميسر على المرأة فيترك لها الخيار فيه ، كما تختلف أحياناً بعض الواجبات باختلاف الوظائف لدى كل من الرجل والمرأة .

ولقد جعل الإسلام مجال المرأة الأول هو البيت حيث الحب والحنان والعطف والرحمة والأمومة وروابط الأسرة المتين حيث تتربى أجيال سوية بعيدة عن الاختلال العاطفي ...

لقد مارست البلدان الغربية نحو قرن من الزمان ، المساواة بين الجنسين ، لا الأخلاقية فهذا حق ولكن الوظيفية مع اختلاف طبيعة الإعداد الوظيفي لكل منهما ، وهذا خطأ في حق العلم والواقع كذلك ، ولكن بالرغم من مرور هذه المدة الطويلة لم تتمكن المرأة الغربية من الحلول محل الرجل في أي مجال من مجالات اختصاصه .. ودعا هذا الفشل العملي إلى دراسة القضية من جديد ، وقد أجريت دراسات كثيرة في النصف الأخير من هذا القرن في البلاد الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة ، والنتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات تؤكد بشدة على وجهة نظر الشريعة إزاء المرأة ، وقد أثبتت بأسلوب قطعي أنه لا توجد فروق سيكولوجية فقط بين الرجل والمرأة بل إن هناك فروقاً بيولوجية حاسمة تميّز بينهما وهما طبقاً لتصميمهما الطبيعي لا يصلحان لعمل واحد .

ولقد تبيّنت لنا بصورة واضحة الحياة الأسرية والإجتماعية التي تتكون في

ظل النظريتين .. لقد ظلت الأحكام الشرعية بشأن الرجل والمرأة نافذة لمدة ثلاثة عشر قرناً – على سبيل الإجمال – في جزء كبير من المعمورة ولم تطرأ تعقيدات على نظام الحياة ، ولكن مبدأ المساواة المطلقة الذي لا ينظر إلى مبدأ اختلاف الوظائف الطبيعية – بين الرجل والمرأة – قد أفسد المجتمع كله وتشوشت بسببه الحياة الأسرية كلها .

وليس هذا هو المكان المناسب لشرح المشكلات الكثيرة التي ظهرت بسبب إخراج المرأة من مملكتها الطبيعية – البيت – حيث تتولى أقدس مهمة .. بناء الأجيال .. وإقحامها في الأمور الخارجية – التي دمرت حياتها وسلامها الداخلي وعاطفة الأمومة المقدسة فيها – ولكنني سأكتفي هنا بذكر جانبين من هذه المشكلات :

أولهما : مشكلة الأولاد المحرومين من تربية الوالدين .. فقد أصبح من الأمور العادية في المجتمع الغربي أن الأولاد يحرمون من تربية والديهم ومن إشرافهما الفطري بسبب خروجهما معاً للعمل . وبالإضافة إلى هذا هناك ظاهرة ما يسمى بـ «البيوت المنهارة» التي تظهر بسبب الاختلاط الحر بين الجنسين فتكثر حوادث الطلاق ويحرم أولاد هذه «البيوت المنهارة» من التربية الفطرية للوالدين فتهتز شخصياتهم منذ البداية ، وبذلك ظهر مرض نفسي جديد بين الأولاد سماه الأطباء الأمريكيون (Autism) ويظهر في الأطفال المتمتعين بالصحة الجسدية ولكنهم يشعرون بالملل ويتشاجرون مع زملائهم ويهملون الواجبات المدرسية ويميلون إلى العنف ، وقد فشلت تدابير علماء النفس لعلاج هذه الظاهرة المرضية .

والجانب الآخر يتعلق بالكبار من البشر .. فبينما يعاني الأطفال الحرمان من حنان الوالدين ، يعاني الكبار الحرمان من الأقرباء والأصدقاء المخلصين الأوفياء . وقد جاء في تقرير فرنسي أن هناك سبعة ملايين من الكلاب في «فرنسا» التي يبلغ عدد سكانها اثنين وخمسين مليون نسمة ، وتعيش هذه الكلاب مع أصحابها وكأنها من أقاربهم ، ولم يعد غريباً في مطاعم باريس أن نشاهد الكلب وصاحبه يتناولان طعامهما من مائدة واحدة . وحينما سئل مسؤول في جمعية رعاية الحيوان بـ «باريس» : لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثلما يعاملون به أنفسهم ؟

أجاب : «لأنهم يريدون أن يحبوا ولكنهم لا يعثرون بين الناس على من يحبونه » .. !
لقد انفرط عقد المجتمع الإنساني كله بسبب تحطيم التوازن الطبيعي بين الرجل والمرأة . إن الإنسان في حاجة فطرية إلى علاقات الأب والأم والأخ والأخت والزوجة والأولاد .. ولكن الإنسان حين لم يجد هذه العلاقات الخالصة بدأ يحب الحيوانات ، فهي على أي حال لا تفارق أصحابها ولا تغدر بهم .

إن التجارب البشرية نفسها قد أوصلت الإنسان إلى باب الحق ، وليس لحاملي القرآن إلا أن يفتحوا هذا الباب المغلق لتدخل قافلة البشرية إلى عالم الرحمة الالهية التي وسعت كل شيء . والذي وعد الحق بأنه سيكتبها للمتقين منهم . (٧٩)

ومع ذلك وفي مجال الاختيار والاستثناء ، وفي الظروف التي لا يكون البعض من النساء لديها واجبات أساسية لسبب أو لآخر فقد قامت المرأة بأنشطة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية على عهد النبوة وتحت توجيهات معلم البشرية ورسول الله إلى العالمين ولكن في حدود طبيعتها وفي مجال اليسر والطهر والاختيار ودون إخلال بالواجب الأساسي والرئيسي وهو إدارة «مملكة البيت» حيث مناخات الحب والجمال وبناء الإنسان السوي ..

فنهن من كن يزيّن النساء ويعددنهن لأزواجهن . ومنهن أم سليم بنت ملحان لما أعرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصفية بنت يحيى بن أخطب ، كانت التي جملتها ومشطتها وهيأتها «أم سليم» بنت ملحان كما جاء في طبقات ابن سعد .. وكانت هذه المهنة مهنة التزيين والذوق المرهف للجمال مهنة رفيعة وكانت أخت الخليفة الثالث عثمان رضوان الله عليه تمارسها كما جاء في الإصابة .. ولقد كانت رعلة القشيرية امرأة ذات لسان وفصاحة فقالت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، إنا ذوات الجدود ومحل أزهار البعول ومن بنات الأولاد ولا حظ لنا في الجيش (أي واجب القتال لا التطوع) فعلمنا شيئاً يقربنا إلى الله .. وفيه : إني امرأة مقنية أقين النساء وأزينهن لأزواجهن فهل من حوب فأنيط عنه ، فقال لها ... يا أم رعلة : «إقني هن وزيّني هن .. الخ القصة» (٨٠) .

ولقد قامت المرأة المسلمة بدور التمريض ورافقن الحبيب المصطفى في الغزو وأظهرن من ضروب الشجاعة وخفة الحركة ومساعدة الجيش الإسلامي ما يدعو

إلى الإعجاب وأَنْ يَكُنَّ قدوة للمسلمات والمؤمنات مدى الدهر .

وقد أخرج البخاري والنسائي عن الربيع بنت معوز بن عفراء قالت : كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكنا نسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة .

ولما أصيب سعد بن معاذ ، قال النبي – قدوة البشرية – : «اجعلوه في (خيمة رفيدة) التي في المسجد حتى أعوده من قريب» ... وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان ضيعة من المسلمين .

وفي ترجمة «ليلى» الغفارية كانت تخرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مغازيه تداوي الجرحى وتقوم على المرضى ، وأخرج ابن مردويه في تفسيره عن معادة الغفارية قالت : «كنت أنيساً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. أخرج معه في الأسفار .. أقوم على المرضى وأداوي الجرحى» ...

وفي طبقات ابن سعد في ترجمة أم سنان الأسلمية ، قالت : «لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخروج إلى خيبر جئته ، قلت : يا رسول الله أخرج معك أخرز «السقاء» وأداوي «المريض» و «الجريح» إن كانت جراح وأبصّر الرجل ؟ فقال : اخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فإن شئت فمع قومك وإن شئت فمعنا ، قلت : معك ، قال : فكوني مع «أم سلمة» زوجتي ، قالت : فكنت معها» .

وقد بوّب الإمام البخاري في كتاب المغازي ، باب «جهاد النساء» ، وباب «غزو المرأة في البحر» ، وباب «حمل الرجل امرأته في الغزو» ، وباب «غزو النساء وقتالهن مع الرجال» ، وباب «حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو» ، وباب «مداواة النساء الجرحى في الغزو» ، وباب «رد النساء الجرحى والقتلى» .

وفي التجارة : مارست المرأة البيع والشراء ، ففي طبقات ابن سعد عن قيلة أم بني أنمار قالت : جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المروة ليحل في عمرة من عمره فجئت أتوكأ على عصا حتى جلست إليه فقلت : يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطي بها أقل مما أريد أخذها به ثم زدت ثم زدت حتى آخذها بالذي أريد أن آخذها به ، وربما

أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ثم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذي أريد أن أبيعها به ، فقال لي : لا تفعلي هكذا يا «قيلة» ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعطي به الذي تريدين أن تأخذيه به أعطيت أو منعت ، وإذا أردت أن تشتري شيئاً فاستامي الذي تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت .

ووجّه الرسول ، المرأة إلى الإنتاج حتى في وقت فراغها قائلاً : «نعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل»(٨١) .

مشكلة الغناء والموسيقى والترفيه البريء :

(أ) وفي نطاق المبالغة في التحريم يأتي كذلك تحريم الغناء «مطلق الغناء» وحقيقته : «رفع الصوت بأداء حسن والترنم به» ، وإنما المحرم منه ما فيه تهييج وتشويق إلى المحرمات وتحسين لها والدعوة إلى تجاوز حدود شريعة الله وما فيه تحسين للفواحش وتزيين لها وتشجيع على اقترافها .

وفي نطاق المبالغة في التحريم يأتي كذلك مع تحريم الأغاني تحريم ما يطلق عليه «الفنون الجميلة» بصفة تبدو وكأنها قطعية أو إجماعية وكأنها أيضاً ليست مسألة فرعية اجتهادية وكذلك الترفيه البريء ونحو ذلك مما يدخل في نطاق الفنون الجميلة البعيدة عما حرم الله من إحياء معالم الوثنية أو رسم أو تصوير ما حرم الله .

ولكن الأغاني البريئة النظيفة والفطرية وهي أحد أنواع الفنون الجميلة لا تعدو أن تكون أصواتاً حسنة بعيداً عن أنكر الأصوات ، يأنس لها القلب ، وتسرّي عن الإنسان لأواء الحياة فتزيل ملل القلوب يجدها كما هو «واقع الفطرة» في تغريد طير وحفيف نسمات وفي جريان جدول نمير .. وهذا اللهو البريء – تغاريد الإنسان وأناشيده – لم يحرّم إلا وقت صلاة الجمعة ، شأنه في ذلك شأن التجارة حينما كان البعض إذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليه وتركوا الرسول .. قائماً على منبره ، فنزلت الآيات تعلمهم أن الرسول يعلمهم ما عند الله ، وما عند الله خير من اللهو ومن التجارة في غير تحريم

للهو والتجارة إلا وقت النداء لصلاة الجمعة* إذ يجب السعي إلى ذكر الله حتى تقضى الصلاة وتؤدى .

ولقد جاءت الأحاديث تبين هذا الموضوع بأجلى بيان وأوضحه : فقد روى مسلم في صحيحه(٨٢) ، والبخاري(٨٣) ، واللفظ لمسلم : «عن عائشة قالت : دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث ، قالت : وليستا بمغنيتين ، فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله : «يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» ...

وروى البخاري ومسلم : وفيه جاريتان تلعبان بالدف .

في صحيح البخاري قالت عائشة : «لقد رأيت رسول الله يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في «مسجد رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم ، يسترني بردائه لكي أنظر إليهم .. ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف ، فاقدروا قدر الجارية العربية الحديثة السن الحريصة على اللهو» (٨٤) .

وفي صحيح البخاري(٨٥) : عن عائشة أم المؤمنين ، قالت : «دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال : «أبمزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه» ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : «دعهما» ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فأما سألت رسول الله وأما قال لي : تشتهين تنظرين .. ؟ ، قلت : نعم ، فأقامني وراءه .. خدي على خده ، وهو يقول : «دونكم يا بني أرفدة ، حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ، قال : فاذهبي» ... » .

وفي صحيح مسلم : فرس أو حبش – يعني اللاعبين – قال ابن عيينة :

(*) ويقاس عليه أوقات أداء الأركان .

بل حبش يلعبون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحرابهم إذ دخل «عمر بن الخطاب» فأهوى إلى الحصباء يحصبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «دعهم يا عمر»(٨٦) ... وهكذا صرف الرسول أبا بكر وعمر عما اجتهدا فيه إذ أنه خطأ ، ولهما على كل حال أجر المجتهد المخطئ ولا يعمل باجتهادهما هذا لأنهما لم يُقرَّا على اجتهادهما من مصدر التشريع الحي ...

ولسنا في موضع تفصيل وإنما نحن في سبيل استنكار من يريد أن يفرض اجتهاده وفهمه على المسلمين في مواضيع فرعية اجتهادية خلافية(٨٧) .

إن الغناء في رأيي هو مجرد الأصوات الندية الحسنة الأداء على الضد من أنكر الأصوات * ، وهو كذلك : الإيقاع الموسيقي .

أصوات إنسانية حسنة الأداء يترنم بها الإنسان : بآيات قرآن تهيج القلوب وتبعث أعمق المعاني في النفوس نحو آفاق الروح وحجب الغيب وعالم الشهادة : «وما أذن لنبي أن يتغنى كما أذن له أن يتغنى بالقرآن» (٨٨) . «وليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٨٩) . «وما أعلم رجلاً من «المهاجرين» إلا سمعته يترنم» (٩٠) .

وقد شبه الرسول الصوت الحسن بمزمار من مزامير آل داود — فقال : «إن عبدالله بن قيس أُعطِي مزماراً من مزامير آل داود» (٩١) وقال له : «لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» (٩٢) .

أو «بشعر» يردده الإنسان ويتغنى به .. لعقيدة يشيد بها أو ذكرى خالدة يستعيدها ، أو عزيز غاب أو حبيب افتقده أو استبد به الشوق إليه أو جمال وروائع آيات يتملا جلالها وجمالها القلب والعقل معاً أو مسافر أطلق حداءه الجميل يهوّن على نفسه مشاق السفر حتى ليقول له الرسول الكريم : «رفقاً بالقوارير يا أنجشة»(٩٣) .

(*) ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (سورة لقمان ـ آية ١٩)

أو بشعر يرحب به للقاء من يحبه ويجله الناس فتردد أصواتهم في إيقاع بديع وعروض حسن (الموسيقى) :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع[٩٤]

إلى آخر أغنية الترحيب المعبرة شعراً وأداءً عن حب الأمة لرسولها العظيم صلى الله عليه وآله وسلم .

أو أغنيات تبهج القلوب في عيد أو عرس أو مناسبة ابتهاج فتردد الأصوات الإنسانية أغانيها ، والدفوف أو ما أشبه ذلك من آلات موسيقية أنغامها .

وفي مناسبة ابتهاج في عرس لأحد أنصار الله يقول رسول الأمة : «هلا بعثتم من يغني لهم – فإن الأنصار قوم يحبّون اللهو» [٩٥] .

أصوات إنسانية ندية الإيقاع حسنة الترتيل وآلات موسيقية تحدث أصواتاً جميلة بدون كلمات وحروف تعبّر عن معان يدركها الحس الروحي في أبعاده اللامتناهية ، يستغرق في آفاقها العقل ويتهيج بها القلب ، ويستلذ لها السمع .. هذه الأصوات الموسيقية ذاتها يشدو بها طير فيطلق عليها تغاريد ، ويمجّد بها الله ويؤيد بها الحق ، ويدعىٰ بها إلى المثل العليا والقيم الرفيعة ، فتسمى «أناشيد» ، ويثنى بها على الرسول وعظماء الخلق فتسمى «مدائح» ، ويوسوس بها نسيم وتسمع من حفيف شجر أو جدول نهر أو أمواج بحار والكون كله موسيقى موحية في إيقاعه العام ، في هدوء الأسحار وشمول السكون العام ، في الغابات والبحار والصحارى المترامية الأطراف ... جلال وجمال مرئي ... وتراتيل مسموعة ندية ... وأريج طيِّب يُشم ... كل ذلك مع الفطرة في نسق تنفر من قبح وبشاعة في مرئى ... ومن أنكر الأصوات في مسموع ومن نتن الجيف في مشموم ... تلك هي الفطرة ... وذلك هو الخلق ...

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [٩٦]

إن «الصوت الحسن» وموسيقاه ولحنه في دائرة التسامي والترفيه البريء لا ضير فيه ، ولكن «الصوت الفاجر» المعبر عما حرّم الله وألحان الفاسقين

المائعة الباعثة على فجور الغرائز المطلقة وليس الفطرة الموزونة بميزان الشرع هي ما يجب أن ينهى عنه ولا يكون . سواء أكان صوتاً إنسانياً أو آلياً أو موسيقى .. فالأصوات الهابطة التي تثير الغرائز لاجتياز حدود ما حرّم الله وتبعث في النفوس الميوعة والضعف وتنشر الانحلال هي أصوات نكر وفجور وتحطيم للمعنويات الرفيعة . وهي مما لا يرتضيه ذو خلق كريم وطبع سليم تنفر منها الاسماع النظيفة وذوو الفطر المستقيمة ، ويدرك ذلك أصحاب الحسّ المتسامي والذوق الرفيع والوجدان النظيف .

(ب) الفنون الجميلة المقيدة بالشرع :

إذ المحرم هو تصوير معالم الوثنية وتجسيدها ، أما الفنون التصويرية البعيدة عن ذلك فهي داخلة في نطاق «التعبير الجميل» .. التعبير بحروف وكلمات ووزن موسيقي – عروض – يطلق عليه .. شعر ...

وبأصوات بشرية ذات ألحان يطلق عليه .. «غناء» ...

وبأصوات آلية ذات نمط معين يطلق عليه .. «موسيقى» ...

وبريشة فنان يطلق عليه .. «رسم» ...

وبآلة نحت يطلق عليه .. «تماثيل» .. ولقد كان من نعم الله على نبي من أنبيائه مما امتن الله به عليه «النحت» ..

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (٩٧)

وبآلة تصوير يطلق عليه في الاصطلاح المعاصر «صور» .. وإن كانت الصور تطلق لغة على «التماثيل الوثنية للآلهة» .. وهذا النوع من التصوير محرّم قطعاً ، وكذلك تلك التماثيل لتخليد العظماء سواء استحقوا ذلك أم لم يستحقوه ، ونحوه مما يستخدم لعبادة الأشخاص نحتاً أم رسماً بريشة فنان أم برقاً ، بآلة رسم إذا كان مما يؤدي إلى نوع من : «الرق النفسي» المهيئ لظهور الطواغيت وما يسمى بـ «عبادة الشخصية» مما لا يتلاءم مع المنحى العام لعبادة التحرير في الإسلام :

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (٩٨)

فليس المهم في المسألة هو النحت أو الرسم بريشة فنان أو بآلة رسم وإنما موضوع النحت ومطلق الرسم هو الذي تعتوره الأحكام من تحريم وكراهية وإباحة ووجوب وندب .

عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – أنها كانت تلعب بتماثيل البنات ... (٩٩) ما يطلق عليه في الاصطلاح المعاصر «العرائس» وهي التماثيل التي يلعب بها الأطفال .. وهو تصوير مجسد ولكنه ليس إحياء المعالم الوثنية لأن الوثنية هيئة كاملة لها فنونها وتعبيراتها المتكاملة مع ما تؤديه من إيحاءات اسطورية خرافية ، ونجدها على سبيل المثال اليوم في الكنائس وارثة معابد الوثنيات حيث تزخر بمعالمها وتماثيلها وتصوراتها الوثنية وذلك ما حرّمه الله ورسوله لتحرير الإنسان من أوهام الوثنية وخرافاتها وأساطيرها المذلّة لكرامة الإنسان والمقيدة لعقله فلا ينطلق إلى آفاق الحق المضيء المطهر من أرجاس الوثنية وأدناسها المظلمة .

ولقد كان رسول الله حريصاً على إبعاد الأمة عن أي شبهة اقتراب من معالم الوثنية :

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . كان عليه نذر أن ينحر على «بوانه» ، قال : وبوانه ماء بحصن من نجد ، فقال النبي «إن لم يكن وثناً أو عيداً من أعياد الجاهلية فانحر عليه» (١٠٠) .

مشكلة محاولة إظهار الصلاح والتقوى :

إن التظاهر بالدين والغلو فيه والتماوت وإبراز أشكال كهنوتية وكأن ذلك هو الصلاح والتقوى لهو بحاجة إلى «درة» عمر الذي ضرب بدرته مثل هذا النمط من الناس قائلاً له :

«لا تمت علينا ديننا أماتك الله» (١٠١) .

والتزمت والتهجم ليسا من سمات المؤمن الذي يدعوه الإسلام إلى أن يكون هاشاً بساماً :

«تبسمك في وجه أخيك صدقة» (١٠٢) .

ولقد كان في العصر النبوي مضحكين ومضحكات يسرّون عن الناس لأواء الحياة ويدخلون على القلوب البهجة والمسرة والانشراح ، منهم : نعيمان بن عمر ابن رفاعة الأنصاري .. ممن شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدهما ، قال ابن الأثير في ترجمته من أسد الغابة : «كان كثير المزاح يضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» (١٠٣) .

وفي سنن أبي داود بسنده إلى الليث عن عمره قالت : « كانت امرأة مكية تضحك النساء وكانت في المدينة امرأة مثلها فقدمت المكية المدينة فتعارفتا فدخلتا على عائشة فتعجبت من إتفاقهما فقالت عائشة : «عرفتِ هذه ؟» ، قالت : «لا ، ولكننا التقينا فتعارفنا» ، فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الأرواح جنود مجندة ما توافق منها ائتلف وما تناكر اختلف» (١٠٤) .

لقد مازح الرسول الرجال والنساء والأطفال على السواء وأضحك سنهم وأدخل الفرح على قلوبهم وضحك معهم وأضحك صحابته كما لاعب أسباطه .. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً ووضع لذلك نظاماً عاماً هو «الحق» .. من ذلك انه قال لإمرأة من الأنصار : إلحقي زوجك فإن في عينه بياضاً فسعت نحوه مرعوبة فقال لها زوجها : ما دهاك ؟ فأخبرته ، فقال : نعم إن في عيني بياضاً لا لسوء .. فخفضي عليك .. وأتته صلى الله عليه وآله وسلم – عجوز من الأنصار فسألته : أن يدعو الله تعالى لها بالجنة ، فقال : إن الجنة لا تدخلها العجّز فصاحت ، فتبسم عليه السلام فقال لها :

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾ (١٠٥)

وقال الرسول عن نعيمان ، وكان أولع الناس بالمزاح عنده ، وكان يكثر الضحك ، فقال الرسول : يدخل نعيمان الجنة وهو يضحك .. وقيل لسفيان الثوري : المزاح

هجنة ، فقال : بل هو سنة ، وسئل النخعي .. هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟ فقال : نعم ، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي . وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام ، وعيسى مبتسم فقال يحيى : مالي أراك لاهياً كأنك آمن ، فقال عيسى : مالي أراك عابساً كأنك آيس ؟ فقالا لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي ، فأوحى الله إليهما : أحبكما إليّ الطلق البسام أحسنكما ظناً بي ...

وفي الحديث الصحيح :

أن امرأة جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستحملته ، أي طلبت إليه أن يجد لها ما تحمل عليه ، فقال لها : أنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة ، فجعلت تقول : يا رسول الله ، ما أصنع بولد الناقة ، وهل يستطيع أن يحملني ؟ ، وهو يبتسم ، ويقول : لا أحملك إلا عليه ، حتى قال لها أخيراً : وهل يلد الإبل إلا النوق ؟ ...

ولم يكن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يمزح مع الكبار ليس غير وإنما كان يمزح مع الصغار أيضاً . حدثوا أن نغراً «بلبلاً» كان لصبي من صبيان الأنصار فطار من يده فبكى الغلام ، فكان الرسول يمر بالصبي فيقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ .

وكان يمازح ابني ابنته مزاحاً مشهوراً ويباسطهما ويلعب معهما ويحملهما على ظهره متكئاً على يديه ويمضي بهما قائلاً : نعم الجمل جملكما .

ولا أدل على أن الضحك من صفات الإنسان في أرقى بيوت البشرية بيوت النبوة والرسالة من أن التنزيل العزيز قد نص عليه ، فقال تعالى :.

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (١٠٦)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ (١٠٧) ذلك أن المجتمع الإسلامي في الصدر الأول لم يكن قاسياً تجف معه القلوب وإنما كان ندياً بالفكاهة الحلوة العبقة المحببة » . (١٠٨)

وفي حديث الذي واقع زوجته في رمضان ، نرى هذا الحوار الذي يتراءى لنا من خلاله ما اتسمت به شخصية معلم البشرية من رقة في جلال وسماحة ورحابة صدر في عظمة وأبوة وحنان ، وأناة في تعليم وتوجيه وإرشاد وأمر ونهي .. خُلقٌ كما وصفه جل جلاله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠٩)

ان على الدعاة العابسين والمتجهمين أن يتأملوا هذا الحوار ...

يأتي سائل إلى الرسول في وجل ورجاء أن يجد عنده مخرجاً ، فيخبره بارتكابه المعصية قائلاً :

الرجل – هلكتُ وأهلكتُ واقعتُ أهلي في رمضان .

الرسول – أعتق رقبة .

الرجل – ليس لي .

الرسول – فصم شهرين متتابعين .

الرجل – لا أستطيع .

الرسول – فاطعم ستين مسكيناً ..

الرجل – لا أجد ..

فأتى الرسول بعرق فيه تمر ، قال ابراهيم : العرق المكتل ، فقال الرسول :
– أين .. السائل .. ؟ تصدق بها ..

فقال : – على أفقر مني ، والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني ..

فضحك النبي حتى بدت نواجذه وقال : فأنتم إذا . (١١٠)

وفي موقف عام آخر في المسجد الجامع : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة وهو يخطب بالمدينة فقال : قحط المطر فاستسق ربك ، فنظر إلى السماء وما نرى من سحاب فاستسقى فنشأ السحاب بعضه إلى بعض ثم مطروا .. حتى سالت مشاعب المدينة فما زالت إلى الجمعة المقبلة ما تقلع ثم قام ذلك الرجل أو غيره فقال : غرقنا فادع ربك يحبسها عنا ! ! ، فضحك الرسول ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا مرتين أو ثلاثاً ، فجعل السحاب يتصدع عن المدينة يميناً وشمالاً . (١١١)

فأين هذه السماحة من أولئك الذين باسم الجد لا تطيف على شفاههم ومضة ابتسام وكأن الإسلام هو العبوس والتجهم والتظاهر الدائم بذكر اللسان وهمهمة الشفاه والقلوب والأعمال خواء من صدق وحب وإصلاح ذات بين ...

مشكلة سلبية التواكل ، وسموم التجربة القاتلة للمسؤولية وإيجابيات العمل والتفكير والحركة :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١١٢)

مشكلة الاحتفاء بمن يجسدون الأمة :

للتذكير بأعمق المثل في حياة من واقع البشر كالاحتفال بأيام الله مثل مولد الرحمة المهداة للعالم والنعمة التي يجب أن يؤدي فيها الشكر وأيام الله « كالهجرة » و « بدر » و « عاشوراء » وعبر «ومضات القصص الحق من التاريخ» :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ (١١٣)

فلقد احتفت آيات كريمة بمولد يحيى نبي الله ، كما احتفت آيات أخرى بمولد عيسى عليه السلام بأروع بيان وأخلده ، (١١٤) ولما أبلغ الرسول باحتفاء اليهود بيوم النجاة لموسى عليه السلام وقومه من طغيان فرعون ، قال : «نحن أحق بموسى منهم» . (١١٥)

ان مناسبات عظيمة في التاريخ يجب أن يذكّر بها ويُحتفى بمعانيها ومثلها الخالدة وفي ذلك مثوبة وأجر ، فالذكرى تنفع المؤمنين ، ويجب مع ذلك أن تكون هذه الاحتفالات بعيدة عن الغلو والاغراق والجنوح إلى المبالغة التي تخرج عن جادة الحق ، وقد تنحدر إلى مستنقع ألوان من وثنية وشرك فلا تقتصر على قتل العظمة والعبرة والمعنى العظيم للذكرى فحسب بل تدخل في ألوان حرمتها شريعة الله .

مشكلة الجرأة في التحليل والتحريم دون استناد إلى دقة فهم للنصوص وفي غير إصغاء للتحذير الآلهي :

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ ﴾ (١١٦)

مشكلة الحرفية والسطحية في الفهم :

كذلك الذي نبّهه رسول هذه الأمة عندما فهم العبارة الجميلة القرآنية المعجزة المعبرة عن الفجر بالخيط الأبيض من الخيط الأسود بخيطين ماديين أبيض وأسود .. فقال له : «ان وسادك إذن لعريض طويل ، إنما هو سواد الليل وبياض النهار» . (١١٧)

ويوجد كثير من هؤلاء ، أي عريضو الوساد ، يريدون أن يفرضوا حرفيتهم وضيق آفاقهم على ميادين الفهم عند ذوي الألباب ... ومن هذا الباب التوسع في معنى البدعة .. فالبدعة في حقيقتها الواضحة «ما أحلت حراماً أو ما حرّمت حلالاً» ... كالتابعية – الجنسية – مثلاً ..التي يُعبد لها الناس بمفاهيم وطنية ترابية فتمنعهم مما أحل الله لهم «ابتغاء فضل الله في الرزق أو السكن أو نحو ذلك مما أوجب عليهم كالقيام بالأود ومثل واجب الجهاد» أو تحرّم عليهم مما أحل لهم مثل «سن قوانين تُنظم الزواج على أسس وطنية فتحرم الحلال إذ الأساس هو منهج الإسلام وحده لا الرابطة الترابية في أغبى صورها التي عرفتها مجتمعات الوثنية والجاهلية قديماً وحديثاً» .

أما استحداث وجوه الخير فهو من السنن الحسنة التي ثبت أجرها لمن سنها في الإسلام ومن عمل بها إلى يوم القيامة : «من سنّ سنة صالحة في الإسلام فعمل بها بعده كان له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن في الإسلام سنة سيئة يعمل بها بعده كان عليه مثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً . (١١٨)

وهكذا فإن نقص الفقه لمدلولات النصوص وشمولها وعمقها يؤدي إلى أفهام ضيقة : ولقد أثنى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الذين فرشوا المسجد

بالحصبا فجعلوه أجمل مما كان [١١٩] ، وقال الرسول لأهل قبا : ان الله يثني عليكم يا أهل قبا فماذا تصنعون ؟؟ ، فقالوا : كنا نتبع الحجارة الماء ، فقال : ذلكموه فعليكموه .. [١٢٠] ولم يقل هذه بدعة لم أنبئكم عنها من قبل ، ولما صلى الصحابة التراويح جماعة قال عمر : نعمت البدعة . [١٢١] لا كما يفهم ضيقو الفهم وعريضو الوساد إلى العديد من الأفكار التي يجب أن تدرس وتفرز حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

إنها الأهواء .. لا الحقائق الثابتة .. ليست من السنن كونية أم تشريعية في شيء .

إن معالم هذا الإسلام مع :

- طيب « المطعومات » ... ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [١٢٢]

- طيب « الزينة » ... ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [١٢٣]

- طيب « الملبوسات » ... ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [١٢٤]

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [١٢٥]

- طيب « المشمومات » ... ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [١٢٦]

- طيب « المرئيات » ... ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [١٢٧]

﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [١٢٨]

- طيب « المسموعات » ... ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [١٢٩]

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [١٣٠]

وهي إذا كانت مع الطيب في ذلك كله هي أيضاً قبل ذلك وبعده وفي كل حال مع طيب القول والعمل للفرد والجماعة :

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (١٣١)

– مع وسائل القوة ... ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١٣٢)

– مع خير الدنيا والآخرة :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (١٣٣)

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١٣٤)

– مع الإيمان وعمل الصالحات والحق والصبر :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (١٣٥)

– مع الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (١٣٦)

– مع النظر والبحث في السموات والأرض ، تفكراً وتسخيراً واستفادة :

﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١٣٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (١٣٨) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (١٣٩) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ (١٤٠)

– مع التقوى والإحسان أعلى درجات الإتقان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (١٤١)

ـ مع الشورى في الحكم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (١٤٢)

ـ والعدل في المال : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (١٤٣)

ـ والخير في الأرض : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ (١٤٤)

ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (١٤٥)

ـ والتعاون على البر والتقوى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (١٤٦)

مع كل الصفات القرآنية التي حددت معالم الطريق إلى جنة الخلد والخلق العظيم في أسمى صوره ، كما وضّحته أقوال الرسول ، وجسّدته سيرته الربانية على الأرض ...

وهي مع صيحة الرسول في الدعاة :

« بشّروا ولا تنفّروا ... ويسّروا ولا تعسّروا » . (١٤٧)

وهي ترد بشدة على المتنطعين والمغالين والمتزمتين :

« إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم » . (١٤٨)

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . (١٤٩)

« هلك المتنطعون » . (١٥٠) ـ قالها ثلاثاً .

إن الإسلام : قوة في غير كِبْر ، ورفق في غير ضعف ، وبشاش في وجه أخيك .. لا تماوت ولا تظاهر بالخشوع رئاء الناس ، ولا تجهم في وجوههم .. ولا أمر بمعروف ونهي عن منكر إلا بعلم وإلاّ في قطعي أو مجمع عليه لا في مسائل خلافية .. إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ، فرائد الجميع هو البحث عن الحق والالتزام به وكلٌ وفهمه متى استكمل أدوات الفهم وذلك ميدان « المثوبة والأجر » .

مشكلة تعدد التنظيمات الإسلامية :

من المشكلات المعاصرة التي تعترض مسيرة المفكرين المسلمين فيما يكتبون ويؤلفون ، معارضة تعدد التنظيمات أو الاتجاهات الفكرية داخل إطار الفكر الإسلامي وضمن أصوله وقواعده وذلك من قبل وارثي فكر عصور الانحطاط وما قبلها من عصور الحكم العضوض ، ذلك الحكم الذي اعتمد على القهر والغلبة والأمر الواقع وسيلة للاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان ، ونتيجة لذلك الابتزاز بالسيف زوّرت الشورى وحوّلت إلى شكل مظهري تبعاً لأهواء الطواغيت والمتسلطين وتبريراً للأمر الواقع وستراً لجريمة التسلط بالقوة والغلبة ، وقد أثر حكم الفرد على الرؤية لدى الكثيرين فأصبحوا يحبذون التنظيم الواحد وفي ذلك مخاطر تنزلق بالأمة إلى مستبد واحد يستبد بالتنظيم وبالأمة معاً .*
إنه لموقف خاطئ نظرياً وعملياً وعلمياً معارضة وارثي فكر عصور الانحطاط وما قبلها من عصور الحكم العضوض لتعدد التنظيمات الإسلامية التي يفرزها إلى واقع الحياة إرادة تحقيق فهم جماعة من المسلمين لاجتهاد محدد ضمن القواعد والضوابط الإسلامية أو الإبقاء على صفة لتكوين معين داخل الجماعة الإسلامية ـ الأمة ـ فينتج عن هذه الصفة التزامات معينة يتم به التنظيم للجماعة كما يرى ذلك واضحاً في بيان المدينة [١٥١] حيث فصلت التزامات المجتمع المدني على أساس من تكوينه المتعدد .

صحيح أن المسلمين حزب واحد* هو حزب الله ولكن في هذا الإطار

(*) رحم الله الإمام حسن البنا فقد منحه الله الرؤية الخالصة لمحض الحق فكتب على جريدة الاخوان المسلمين وفي كل عدد يصدر منها بأنها لسان حال جمعيات الاخوان المسلمين وتخدم كل هيئة تعمل لرفعة الإسلام وإعادة مجده ، وانظر العدد رقم (١) الخميس ٢٢ صفر سنة ١٣٥٢ هـ ـ السنة الأولى ـ وما تلاه من اعداد ، وكان يرى في جمعيات الشبان المسلمين وشباب محمد في مصر ، والهيئة العربية العليا في فلسطين ، وماشومي في أندونيسيا ، والجماعة الإسلامية في الهند ، وفدائيان إسلام في إيران ، والحركة الإسلامية في اليمن وغير ذلك من التنظيمات والهيئات ـ قوى عاملة للإسلام غير مقيّدة بحدود المكان ، يلتقي معها ويتعاون طبق قاعدته التي تقول : نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

الموحد مهاجرون وأنصار كان لكل منهم طبيعة خاصة في تكوينه .. وداخل إطار حزب الله أمة الإسلام الواحدة التي يتقدم صفوفها رسل الله وما جاءوا به من تعاليم وقد علمنا الله وهو يقص علينا الرسالات السابقة التي تتعدد فيها التفاصيل وتتنوع ضمن الوحدة بأن أتباع الرسل الملتزمين بما أنزل الله وغير المفرقين بين رسله ، أمة واحدة (١٥٢) وفي إطار الرسالة الخاتمة إلى الناس جميعاً نشأت ضمن الوحدة وبطبيعة تنوعها وخصبها الذي تزدهر به العقول وتثمر الثمر الطيب المختلف الألوان والأنواع والأشكال ضمن دائرة الحق والخير وتحري الصواب ، الفرق الإسلامية ـ لتعدد فهمها لمسائل فكرية اعتقادية ضمن التصور الإسلامي ويتبع بعض هذه التصورات مدلولات فقهية للتطبيق في واقع الحياة .

وفي هذا الإطار نشأت كذلك المذاهب الإسلامية التي تقوم على أساس الاجتهاد واطمئنان جماعة من المسلمين إلى سلامة هذا الاجتهاد والالتزام به فيما للاجتهاد فيه مسرح وفي دائرته الواسعة .

وفي هذا الإطار أيضاً إطار الضوابط والقواعد والأصول الإسلامية تقوم الشورى الإسلامية للتعبير عن آراء مختلفة وأفهام متعددة ومشاركة عقول متفاوتة وذلك للوصول جماعياً أو بأغلبية المتشاورين إلى الرأي الأقرب إلى الصواب .

ولا يمكن التسليم بالاجتهاد وفرض الرأي الواحد والفهم الواحد المزعوم له العصمة من الخطأ في الفهم في الوقت ذاته .

وإذا سلمنا بالاجتهاد سلمنا في الوقت ذاته بتعدد الفهم وتجدد الأحكام وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يضع لكل مستجد من الأمر ولكل حدث ضوابطه وأحكامه وقوانينه ونهجه في إطار فقه الإسلام العام بحسب زمانه ومكانه .

ذلك أن قاعدة تغير الأحكام مع تغير المكان والزمان قاعدة شرعية .

(*) ذلك لأنه تجمعهم أصول وقواعد واحدة ومتفق عليها لا يكون بدونها المسلم مسلماً وبذلك فهم حزبٌ واحد أما الأحزاب فلا يجمعها إلا مصالح دنيوية عاجلة وليست لديهم أصول وقواعد ثابتة ولكل منهجه الخاص به على سبيل الجملة والتفصيل .. فالمسلمون يد واحدة على من سواهم ـ حزب واحد ـ يسعى بذمتهم أدناهم ، أما تعدد الفهم في التفاصيل فهو التنوع داخل اطار الوحدة .

وأصدق مثل على ذلك هو التفاوت بين فقه الإمام الشافعي في العراق ، وفقهه في مصر وكذلك نصل إلى نفس النتيجة إذا ما قمنا بدراسات مقارنة لفقه الأمصار الإسلامية ـ المذاهب ـ وكذلك إذا لاحظنا تطور كل منها خلال أكثر من ألف عام تلبية لحاجيات المجتمع المتجددة وتطوراته المختلفة .....

إن ميدان الاجتهاد بشروطه العلمية وضوابطه وقواعده ميدان واسع هو ميدان المثوبة والأجر في حالتي الصواب والخطأ تزدهر عن طريقه المدارس الفكرية والفقهية وتتعدد باختلاف الزمان وتغير المكان ، واختلاف الأمصار في ظل وحدة رائعة هي : الأصول القطعية والقواعد العامة التي لا يجوز الاختلاف فيها .. وبذلك تجد الحرية ميداناً واسعاً لانطلاقها ضمن أطر تعصمها من **الخطأ المهلك** الذي ينتج عن القصور البشري واتباع الأهواء ، والشهوات الصانعة للميل العظيم .

تلك هي المظلة العامة للحزب الواحد الذي له فروعه المتعددة ولكنها غير منفصمة عن شجرته الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

ولقد حدد الإمام علي كرم الله وجهه الذي جعل الله على يديه بيان كثير من مسائل التشريع .. وفي مقدمة هذه المسائل بيان النهج لقتال الفئة الباغية وتفاصيل ذلك حتى قال الإمام الشافعي : لولا «علي» ما عرفنا أحكام قتال الفئة الباغية .

حدد تلميذ النبوة الأول الموقف من الخلاف السياسي حينما رأى الخوارج خطأ التحكيم ونشأ تنظيم جديد حول مفاهيم فارقت الخوارج به أغلبية الجماعة فقال :

«إن لكم علينا ثلاثاً :

(١) لن نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله* .
(٢) ولن نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا .
(٣) ولن نقاتلكم حتى تقاتلونا .» (١٥٣)

(*) ومعلوم أن المسجد كان في حياة الجماعة المسلمة هو مركز إدارة الدنيا والدين ، وهو مجلس الشورى ومركز النور والوعي ومنتدى القوم يتلقون فيه ما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

فلما أخافوا الأمن وقتلوا صاحب رسول الله ، عبد الله بن خبّاب بن الأرت ، وأجبروا مخالفيهم في الرأي من المسلمين على التزام آرائهم مستحلين دماءهم وأموالهم إذا لم يتحولوا إلى الرأي الذي ارتآه الخوارج ما عدا أهل الذمة وحدهم فهم الذين لا يفرض عليهم الرأي ، [١٥٤] لم يبق أمام الإمام الحق إلا قتالهم دفاعاً عن حرية المسلمين فيما يعتقدون ويفهمون ، ولو أن الخوارج لم يسلوا السيف ، ولم يفرِّقوا أمر المسلمين وأمرهم جميع يمضي وفق قواعد الإسلام وضوابطه مهما تعددت الأفهام لما قاتلهم .

ويأتي الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في فترة استبد فيها الظلمة الجائرون بالحكم فيعيد أمر المسلمين إليهم ويقرر مؤكداً هذه الحقيقة .. حرية الفهم لفرد أو لجماعة ، وحرية تكتلها على أساسه ولو كانت مخالفة لرأي الغالبية ما دامت في إطار الحرية فإذا اتخذت أسلوب فرض رأيها بالقوة ، فهنا يؤخذ على يدها وتقدم إلى شريعة الله لإخلالها بأمن الجماعة وسلامها .

وهذا هو النص : «كتب إليه واليه في الموصل يستأذنه في إسكات فئة مناوئة عرفت باسم «حرورية الموصل»* ، يستأذنه بالحجر عليهم حتى لا ينقلوا آراءهم إلى المجتمع ، فأجابه عمر بن عبد العزيز قائلاً : إذا أرادوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذى لأهل الذمة وفي غير أذى للأمة فليذهبوا حيث شاءوا ، وإن نالوا أحداً من المسلمين أو من أهل الذمة فحاكمهم إلى الله .» .

وبذلك أكد الإمام عليّ عليه السلام ، ومن بعده «عمر بن عبد العزيز» رضوان الله عليه حرية المسلم فرداً كان أم جماعة في اعتقاد ما يصل إليه من فهم وحريته في الدعوة إليه ، ومحاولة إقناع الأغلبية به .. شريطة أن لا تستخدم القوة لفرض الفهم على الآخرين لأن استخدام القوة لفرض فهم معين هو الشقاق الذي نهى الله عنه وهو المروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية [١٥٥] ، وهو الذي يمزق الأمة شيعاً ويجعل التعصب والحقد والكراهية والفرقة هي وسائله لتشتيت الأمة ، ذلك الشتات المؤدي إلى فصم عرى وحدتها وتقطيع حبال مودتها وتعاونها .

(*) تنظيم من تنظيمات فرق الخوارج .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (١٥٦)

ويقول الله : ﴿ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ (١٥٧)

ولكن الخوارج أبوا إلا سفك الدماء وإخافة السبل حتى أنهم قتلوا صاحب رسول الله عبد الله بن خباب بن الأرت ، وقتلوا الأطفال فكان لا بد للسلطان في الجماعة المسلمة من وضع حد لهذا الإجرام إذ خرج الموضوع من دائرة حرية الاجتهاد إلى دائرة اقتراف الجريمة التي يعاقب عليها الشرع .

وأي جريمة أكبر من أن يسلب الإنسان حقه في حرية الاختيار التي منحها الله إياه وجعلها الأمانة الكبرى ومناط المسؤولية والتكليف بها يكون النجاة ، ويكون الهلاك يوم يعود ليحاسب عن تلك الحرية من خالقه فاما الوفاء بتلك الأمانة واما الهلاك ...

وفي إطار الوفاء بالأمانة يكون الاجتهاد كما قلنا هو ميدان المثوبة والأجر .. ميدان إعمال العقل والاستفادة من الكنوز الإلهية التي بثها الله في كتاب الله المقروء وسنة رسوله وكتابه المصنوع في كونه المسخر للإنسان .

إن القواعد التي وضعها الإمام علي عليه السلام هي النور الذي يضيء للمسلمين اليوم الموقف السليم من تعدد الافهام ومن التجمع لأمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها على تلك الأسس المبيّنة الموحّدة غير المفرقة والمجمعة غير المجزئة ، ولكن الذين ورثوا فكر عصور الانحطاط ، والملك العضوض يأبون أن يقوموا بتقويم شامل لدروس التاريخ البليغة وعظاته وعبره ، وما أصاب الأمة الإسلامية من فتن ومحن وقوارع وزلازل يجب أن تفيد منها وتعتبر بها وتستفيد من دروسها التي لا تنسى ... ! ! !

والتاريخ خير معلم* ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ (١٥٩)

(*) مثال ذلك : ما حدث بين الشافعية والأحناف حيث استعدى بعضهم على بعض ــ قوى التتار الوثنية !! فكان الدمار لهم جميعاً والمسألة لا تعدو خلافات فقهية ... ومثل ما حدث في « بغداد » أواخر الحكم العباسي من اقتتال ومذابح بين السنة والشيعة ، وما تزال =

سدنة فكر عصور الانحطاط وعبودية المأمور للآمر يفرّقون من الحرية المنضبطة بقواعد الإسلام وأصوله ويحرمون على غيرهـم من الاجتهاد والفهم بشروطه الشرعية المقررة ما يبيحون لأنفسهم من فهم وكأنهم معصومون من الخطأ لكن عليهم أن يعرفوا أنه ليس هناك بابوية في الإسلام وليس هناك وصاية على الفهم المؤهل بالعلوم اللازمة للاجتهاد لأمن فرد ولأمن جماعة وإنما المجتهد ملتزم وملزم بصريح النصوص القطعية النص والدلالة .... وبما يتوصل إليه من استنباط وفهم في دائرة ما فيه للاجتهاد مسرح ....

وكان على سدنة الجمود أن يأخذوا الدرس من التاريخ وما عاناه المسلمون من تسلط الطواغيت وكيف أهرقت دماء الخيرة من أبناء الإسلام منذ مقتل الحسين سيد شباب أهل الجنة ، وزيد بن علي إمام أئمة المذاهب الإسلامية الكبرى ومحمد النفس الزكية ، وابراهيم الإمام وسعيد بن جبير ومنذ ضرب الإمام مالك حتى خلعت كتفاه وسجن الإمام أبو حنيفة حتى مات في معتقله ومنذ جيء بالإمام محمد بن ادريس الشافعي مغللاً بالأصفاد والقيود ليقدم إلى النطع والجلاد .. !

= هذه الشنشنة تعشعش في بعض العقول الفارغة حتى في هذا التاريخ المعاصر حيث تعايشت أمم وأديان ، فترى الذين يسمون أنفسهم «سلفيين» مثلاً يكفّرون أخوانهم الأحناف ويغمزون ويلمزون غيرهم في مؤلفات وكتب معاصرة ، وكادت الصورة تتجدد في عام الغروب للقرن الرابع عشر الهجري في تركيا بين السنّة والشيعة ، كما رددت ذلك وكالات الأنباء ، وذلك هو ما يعمل له أعداء الإسلام ، أما المخلصون وطلائع الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري فدستورهم :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (١٥٨)

وما يزال التناحر الذي محى الوجود الإسلامي في الأندلس على أساس من التنازع على السلطة والطاغوت والعصبية العرقية الأسطورية هو ما يعمل اليوم في أوطان مجزأة متنافرة «أشداء فيما بينهم رحماء بالكفار» يتكلمون عن الاخاء والوحدة والأمة الواحدة ويقيمون السدود والقيود فيما بينهم بشكل لم تعرفه أشد الأمم تعصباً للقومية تلك هي محنة قادة الطوائف الجدد الذين لم يعتبروا بما حدث لملوك الطوائف في الأندلس وما صيحة العذاب تلك منهم ببعيد .

ثم يعفى عنه في اللحظة الأخيرة حيث نجاه الله فأوى إلى مصر وانتشر فقهه بين العالمين .

وكاد الإمام أحمد بن حنبل أن تزهق روحه من أجل فهم اقتنع به .

منذ تلك الأحداث وما تلاها من دروس التاريخ علينا أن نستخلص الدرس ونضع من القواعد ما يجعل الخلاف بين الأمة في دائرة الحوار والاحترام والود والمحبة .

في الـــرأي تصطرع العقـــول وليس تضطغـــن القلـــوب

فالخلاف في الرأي : « لا يفسد للود قضية » .

فهل يريد أصحاب الرأي الواحد والتنظيم الواحد والشورى غير الملزمة ، وطاعة السلطان الغشوم وعدم الخروج عليه ، وعدم الضمانات التشريعية والتطبيقية لضمان وحماية حرية المسلمين وتوفير الكرامة لهم بتحقيق مدلول :

لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ..

في واقع الحياة ، فلا تنطق الشفاة بشهادتين ويتبع المجتمع آلهاً زائفاً متسلطاً في الأرض تتحقق إرادته الوحيدة فيما يشاء من الأمر .. متناسين قول الله جل وعلا :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ (١٦٠)

لا إلَه غيره إليه تأله القلوب وتتلقى منه الأمر وحده هو الذي أرسل رسله بالهدى ودين الحق وجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه امامه ويسّر لليسرى من اختارها وللعسرى من اختارها في قبولى منهج الله ذاته :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (١٦١)

وأثاب المجتهدين داخل إطار المنهج على اجتهادهم في حالة الصواب والخطأ ... إذ هو خطأ غير مهلك تعصمه ضوابط فهو بمثابة نسيان قد يغفل الإنسان عن جزئية ترجح المعنى الصحيح ولكنه لا يكون بعيداً عنه :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١٦٢)

فهل يريد المتعصبون أن لا ينتفعوا من الكتاب والحكمة وأن لا يصغوا لدرس التاريخ البليغ ويريدونها عوجاً لا تأتلف فيها القلوب ولا تظلها المحبة والرشد فيكونون بتعصبهم من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . (١٦٣)

إن المأساة المحزنة في التاريخ كانت بسبب غياب «الشورى» فكان بديلها العنف والطغيان ، ولو ظل مبدأ «الشورى» الإسلامية قائماً يعمل به في المجتمع .. واستمر اختيار الأئمة بإرادة الأمة الحرة عن طريق البيعة الصحيحة لما كانت المصارع الفاجعة لدعاة الخير في الأمة ولما كان التناحر والتمزق داخل صفوفها ، ولما ترعرعت بعض الفرق السرية في ظلام التآمر والخوف والترقب والكراهية والحقد والبعد عن تعاليم الإسلام السمحة كحركة القرامطة وما ينحو منحاها .. ولما كان التنازع بالدم وسيلة لزوال حكم أو الاستيلاء عليه ، ولما صودرت حرية الفكر ولما اضطهدت الفرق والمذاهب بعضها بعضاً .. ولما استوردت الشعوب الإسلامية نظماً ومناهج تخلصها مما تردت فيه .. ! !

وخلاصة القول أن المسلم في القرن الخامس عشر الهجري مدعو لأن يدرس السنن القائمة على اختلاف الفهم وحرية الإرادة وحق تقرير المشيئة والمصير وهي الأمانة التي تفرد الإنسان بحملها وأشفقت السموات والأرض والجبال أن تحملها ، ولا عذر له في عدم الوفاء بها .. فقد زوّد بعقل كاشف .. وفطرة خيرة .. ووحي يهديه سواء السبيل .. ثم هو وما اختار .

وقد وسعت الحرية في الإسلام اليهود والنصارى وغيرهم وحافظت على وجودهم في تنظيم حياتهم وفق تصوراتهم القرون والأجيال وهو ما لم يكن في أي حضارة قديمة أو دين وإنما عرفت الحضارات الحديثة حرية الآخرين وحقوقهم بعد الثورتين الفرنسية والأمريكية المتأثرتين بمفاهيم الإسلام وقيمه .

وإذا كانت الحرية في الإسلام قد وسعت غير المسلمين فكيف لا تسع الحرية والسماح الإسلامي المسلمين أنفسهم داخل إطار الإسلام وضمن ضوابطه وأصوله وقواعده وبيانه العظيم :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٦٤)

إن العالم الإسلامي يضم بين صفوفه مدارس إسلامية واجتهادات مختلفة حول الحكم ، وكثير من مسائل الحياة والفكر والفقه ، فلتزدهر الاتجاهات الفكرية الإسلامية في ظلال من الأمن والحرية والأخوة الحقة حتى يقيم الاسلاميون الكيان الإسلامي المتصف بالتنوع في إطار الوحدة .

ذلك التنوع الذي هو آية من آيات الله والذي به يجد الناس العدل والتجدد والنمو والتوازن ويتنفسون في جو لا شعور فيه بفرض ولا إكراه ولا طغيان ... إن ولايات إسلامية متحدة تضم شعوباً وأجناساً ولغات ومذاهب وثقافات تدور في فلك الإسلام لهي خير لها وللبشرية كلها لأن في طبيعتها العدل للبشر جميعاً حتى من تشنأ وتبغض فإنها تعاملهم بعدل وفق قاعدة دستورها الرباني :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (١٦٥)

وأن هذه الولايات سيتنوع فيها الفقه بحسب مصالح الأمة واختلاف أمصارها وأزمانها كما حدد ذلك الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز)*.

وإننا .. والقرن الرابع عشر الهجري يؤذن بوداع ... والقرن الخامس عشر الهجري تدق ساعته الكونية أبواب التاريخ ... نقول لهؤلاء الذين يكفّرون المسلمين ويغمزونهم بالشرك ويفرقون بينهم ، فهذا أشعري وهذا معتزلي وهذا شيعي وهذا سني وهذا سلفي وهذا صوفي وهذا زيدي .. الخ ، لا بقصد التعريف وإنما بقصد إثارة العداء وإخراجهم من أخوّة الإيمان وأصرة العقيدة .. هل يريدون أن يتقاتل المسلمون فيما بينهم ويسفك دماء بعضهم بعضاً في المستقبل ... ؟؟ أم أن علينا أن نتخذ من هدي الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، نوراً نستضيء به حينما أقر اجتهادات مختلفة ، وحينما وضع من القواعد في دستور المدينة ما تؤدي به التجمعات واجباتها خير أداء ، وتصلها حقوقها في انسجام بضم الشمل ومساواة وحرية عزّ لهما النظير ، ونعمل كذلك بطريقة الصحابة من السابقين الأولين حينما كانت تختلف آراؤهم ولا تتعدى الحوار الهادئ الرزين فيحترم بعضهم بعضاً ويقول

(*) أنظر ما رواه الدارمي عن عمر بن عبد العزيز .

قائلهم إذا لم يتوصل إلى اتفاق مع أخيه : «هذا رأيي .. وهذا رأيك ..» ، وما توصل إليه علماء الإسلام حينما وضعوا القاعدة الذهبية المستقاة من شرع الله :

«لكل مجتهد نصيب .... فهو مأجور على كل حال» .

وجدير بالذكر ما وضعه من قواعد راشدة .. الامام المجدّد حسن البنا .. وهو ينشئ حركة إسلامية معاصرة كبرى : «نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» .

بذلك نحقق في القرن الخامس عشر الهجري ما طبقه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بيان المدينة .

وتتحقق حرية الحوار والنقاش والإدلاء بالحجج كما في اجتماع السقيفة ، ومسجد المدينة ، حيث تم الوصول إلى رأي حاسم وموحد . ويتحقق بالنسبة للتنظيمات والمذاهب القواعد التي وضعها الإمام عليّ ، عليه السلام ، عند ظهور مفاهيم مختلفة ونحقق في الأمصار ما كتبه الراشد (عمر بن عبد العزيز) إلى الولاة وكيفية التطبيق للفقه ـ القانون الإسلامي العام ـ ، وحينذاك تؤدي التنظيمات والتكتلات الجماعية أدوارا مختلفة منها ما يلبي الأغراض الاجتماعية ومنها ما يقوم بمهمة توازن القوى في المجتمع فيتحقق العدل السياسي وتوجد وسائل الرقابة الشعبية على «أولي الأمر» و «المصالح العامة» وتحول بين تسلط فرد ، أو جماعة ، أو تنظيم واحد على مجموع الأمة .

ذلك هو درس التاريخ وعبرته الكبرى :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٦)

البُعدُ الثَالِث :

غيابُ المنطِقِ العقلي

﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(سورة يونس ــ آية ١٠)

إن الوحي هو الحقيقة التي يتقبلها العقل ويقتنع بها إذ هو نتيجة لاقتناعه بوجود الخالق جل وعلا باعتباره «حقيقة الحقائق» و «كبرى اليقينيات» بملايين الآيات الدالة عليه والتي لا مفرّ من التسليم بدلالتها إلا لأولئك الذين :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ (١٦٧)

وهذه العقيدة هي فطرة الإنسان في عميق تكوينه .. فَطَرَه بارئُه عليها ولا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .. وقد أثبت العلم في جميع دراساته المفصلة عمق هذه «الفطرة» في الإنسان .. على مر العصور وكر الأزمنة وحيثما وجد هذا الكائن على أي رقعة يقف عليها .

وما يصدر عن «الوحي» يظل دائماً في دائرة «المنطق العقلي» لا يخرج عنها و «العقل» هو أداة «الفهم» لما يرشد إليه «الوحي» من «معالم» و «آيات» و «براهين» يسلم بها من استخدم هذه «الأداة» لا من عطّلها ، وهي – أي دائرة المنطق العقلي – بالوحي الذي هو «المؤشر للعقل نحو الحقائق» يعصمه من الضلال والغفلة والوقوع في براثن الأساطير والخرافات ، ولكن تحريف الإنسان ، والخرافات التي ألصقها بالوحي والرسالات كما في الكتب المنزلة التي سبقت «الكتاب المهيمن» أو «بالفهم غير المستقيم» «للكتاب المهيمن» أو بالأحاديث التي لا يثبت «صحة متنها» أو «سندها» جعل كثيراً مما يعتبر من المناهج الآلهية أو ما هو تفسير لها وهي منه براء .. لا تستقيم مع المنطق العقلي فلجأ الإنسان إلى أحد موقفين خاطئين : الكفر بأصل تلك المناهج نفسها جملة وتفصيلاً أو طرح التفكير العقلي جانباً وإخراج هذه المسائل المنافية «للمنطق» و «العقل» إلى دائرة ما أسمي «الإيمان القلبي» .. وهم يعنون : أن القلب لا يحتاج إلى برهان «دليل» بل إلى تصديق مجرد من البرهان .. مع أن «القلب» ليس هو ما يظنون .. إذ هو : «مضمون الإنسان ومحتواه ولبابه» .. وهذا المضمون والمحتوى واللباب للكائن الإنساني هو أداة العقل وسبيله إلى عقل الأشياء وفهمها على أساس صحيح ، فالقلب من الشيء ذاته وحقيقته ، وعلى أساس فهمهم الخاطئ : أن الدين

دائرته القلب الذي يزعمون ، وليس العقل الذي يحتاج إلى برهان وتدليل بدعوى : أن موضوع الدين أكبر من «العقل» مع أن العقل هو أداة «الفهم» ومناط المسؤولية وأداته القلب أي حقيقة الشيء في ذاته ولبابه .. وليس هناك «قلب» لا يحتاج إلى دليل وبرهان و «عقل» يحتاج إليهما إذ أن هذا تقسيم خرافي وهو أسلوب مسيحي يضلّون به من يريد استخدام عقله في فحص ما هو حق وما هو باطل وذلك في أهم الأفكار الرئيسية التي يقوم على أساسها الدين الذي أبعد من منابعه الصافية وأغرق في الوثنية وبدائية التفكير ، ولذلك فإنهم يعملون باستماتة أن لا يخضع ما يعتقدونه لتمحيص أداة العقل حتى يجوز على الإنسان الزيف لا الحقيقة .

إن «الأداة العقلية» كسائر ما زود به الإنسان من أجهزة من الممكن تعطيلها وعدم الاستفادة منها بعدم استخدامها .. ولما كانت الأفكار الرئيسية في الإسلام من الوضوح ومن الاستنارة بحيث أنها ليست بحاجة إلى الهروب من منطق العقل والعلم ، فهي مفهومة وواضحة بمحض صريح العقول ولم تتعرض لتبديل أو تحريف يجعلان للخرافة والنقص البشري إليها سبيلاً وذلك لحفظ مصدر العقيدة الإسلامية ومنهجها في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. إلا أن الإنسان هو الإنسان فلولا حفظ الله لكتابه لأصاب القرآن ما أصاب الكتب الآلهية السابقة له .

ولما لم يجد المحرفون سبيلاً إلى تحريف القرآن وهذه هي إحدى معجزاته ـ اتجهوا إلى أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فمع انحراف الحكم عن الشورى إلى القهر والغلبة .. ومع الصراع المستعر بين الأهواء المختلفة وجد التحريف سبيله إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما أنبأ هو بذلك :

«إنه سيُكذب عليّ كما كُذب على الأنبياء من قبلي فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» . (١٦٨)

ولولا حفظ الله للقرآن لكانت هناك عدة كتب تدعي أنها القرآن ، ولكن القرآن حجة الله على خلقه قد حفظ من أي تحريف أو تبديل أو تغيير وكان هذا الحفظ إحدى معجزاته التاريخية ، اطمأن إليها العقل لقيامها على الحقيقة

التي لا سبيل مطلقاً إلى نكرانها إلا إذا جحدت كل حقائق الأرض ولهذا كانت «السنة» هي المجال الخصب للكذب والدس والافتراء على الله ورسوله .. وإذا كان علماء الحديث ورجاله قد تصدوا لذلك بوضع المقاييس العلمية ـ علم مصطلح الآثار ـ ودراسة تاريخ الرواة ـ علم الرجال ـ ووضعت المصطلحات لدراسة السند بما يبين الصحيح وما يقاربه والضعيف والموضوع .. الخ .. الخ ، كما وضعت مقاييس لدراسة «المتن» إلا أن ذلك لا يخلو من النقص ومن الأهواء كأي عمل بشري ، ولكن السنة الصحيحة والمطلوبة لا تضيع إذا ما استخدم المقياس الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أصدق المقاييس وأدقها : «سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا ، وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا به وانه ستفشو عني أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرؤا كتاب الله واعتبروا فما وافق كتاب الله فأنا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله» . (١٦٩)

وذلك هو الموافق لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١٧٠)

فالرسول هو المبين لما أنزل للناس وبذلك لا يمكن مطلقاً أن يكون هناك اختلاف بين «التنزيل والبيان» إلا عند أولئك الوضّاعين المفترين .

وكما لجأ المسيحيون إلى استبعاد العقل ليمرروا خرافاتهم وأساطيرهم لجأ الوضاعون أو المتبعون لهم بحسن نية أحياناً وبسوء نية أحياناً أخرى ، إلى استبعاد العقل ، وقالوا قول من سبقهم : هذه دائرتها «الإيمان القلبي» لا «البرهان العقلي» ! ! .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«لتتبعن سنن من قبلكم ..

قالوا : اليهود والنصارى ؟

قال : فمن ؟ ..» (١٧١)

إن «القلب» هو أداة «العقل» لأنه لباب الإنسان وحقيقة ذاته ولا تفريق بينهما إلا عند دعاة الخرافات والأساطير وأولئك الذين تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام . وتفتري ألسنتهم ادعاء الفهم المعصوم فيما هو مجال للاجتهاد واختلاف الفهم .. ليفرضوا أوهامهم وتخيلاتهم وأفهامهم الخاطئة ..

ولقد قال أحد الوضّاعين في القرن الثاني للهجرة وهو يواجه الموت – وهو أبو العوجاء – : «لقد دسست أربعة آلاف حديث أحلل فيها وأحرم ما منها إلا ويعمل به» (١٧٢) .

وهو وإن كان ربما قد بالغ في قولته هذه إلا أننا نجد أموراً تحرّمها أحاديث ولا أصل لذلك التحريم في كتاب الله وصحيح سنة رسوله ، ونجد أموراً تحلل وليس لها مستند من كتاب أو من سنة مجمع على صحتها حتى يلزم بها المسلمون جميعاً .

ولقد شن كثيرون – بعضهم بحسن نية والبعض الآخر بسوء نية – حملات على حديث «العرض» حتى يضمنوا بقاء خرافاتهم وتدميرهم لمقومات الفكر الإسلامي خدمة للطواغيت ، وتخديراً للأمة بخلق السلبيات فيها ، وقتل إيجابياتها الخلاقة المبدعة ، ولكن صيحة النبوة في التزام «الكتاب» أمام «فتنة الأحاديث» ستظل المقياس الهادي :

روى الحارث بن عبد الله الهمذاني قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فدخلت على «علي» عليه السلام فأخبرته فقال أقد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ، قال : «كتاب الله» فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا :

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ (١٧٣)

من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم(١٧٤) .

وحفظ الله له دون سواه سيجعل حديث «العَرض» وحديث «المخرج من فتنة الأحاديث» نوراً لا يظلم أبداً ومقياساً دقيقاً لا يضل معه من أنزل لهم القرآن وهم من بيّنهم القرآن بأوضح بيان : لقوم «يعقلون»(١٧٥) لقوم «يفقهون» (١٧٦) .. لقوم «يعلمون»(١٧٧) العقل والفهم والعلم مؤهلات فهم هذا القرآن .

إن قوماً لا يعقلون ولا يفهمون ولا يعلمون سيتقبلون كل خرافة وكل ما من شأنه تدمير مقومات الفكر وإيجابياته وفعالياته وذلك بما يخلق هذا الفكر اللاعقلي واللاعلمي ـ من نفوس جاهلة متبلدة مشغولة بالقشور والمظاهر الميتة الجوفاء التي لا حياة فيها ولا روح ، نفوس متخاذلة متواكلة عازفة عن استعمار الأرض وإعداد القوة واكتشاف آيات الله في الأرض والسماء ومعرفة نواميسها وقوانينها على حقيقتها فما خلق الله ذلك إلا بالحق ولا مجال للعبث والعشوائية والصدفة .

وكيف تستطيع أمة شأنها ذلك بعد أن غيرت ما بنفسها نحو الأسوأ أن تحمل رسالة الخير إلى العالم المعاصر .. إن فقدان العقل والفقه (الفهم) والعلم يخلق أمة صالحة لأن تستعبدها الطواغيت المتعددة : طاغوت الاستبداد السياسي وطاغوت الاستعمار بجميع أشكاله وصوره وطاغوت الأفكار الميتة .. انها كمية مهملة في الأرض لا حساب لها ولا وزن .. اللهم إلا في كيفية استعبادها واستغلالها وهَوانها على الله وعلى الناس .

البعد الرابع :

غياب الأسلوب العلمي

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الزمر ـ آية ٩)

إن قوانين العلم لا تتغير ولا تكتشف ولا يستفاد منها بحسب الأمنيات وهوى العاجزين .. انها تخضع لضوابط عقلية وبحوث جادة وعمل متواصل .. ان الطبيعة : (الأرض والسماء وما فيهما) لا يمكن أن تسخر في الجانب الاختياري للعمل فيهما بالنسبة للإنسان ولا يستفاد منهما إلا «تحت قوانينهما الموضوعة لهما» من قبل من السموات والأرض جميعاً قبضته لا من قبل الأوهام الفكرية والخيالات الجاهلة التي تفسر السنن بأساطيرها الموهومة أن العلم أداته العقل ووسيلته «البحث» والكشف المتواصل عن الأسرار الكامنة وراء الظواهر .

إن الأسلوب الذي ساد التفكير الإسلامي في عصور الانحطاط هو أسلوب يفسر الظواهر بالوهم والخرافة والأسطورة ، انه يقف من الأشياء موقف الدهشة والتسليم بالغموض والسطحية في التفسير إنه أبعد ما يكون عن التفكير الرياضي الذي يقوم على أن : ١ + ١ = ٢ ، فمثل هذا التفكير هو منطقة حرام على الفهم ، والأسلوب التقليدي الذي ساد هو : الاكتفاء بأنها من الله ، أما الكيفية في صنع الله وبحث السنن والاستفادة منها فأفكارهم أبعد ما يكون عنها ، قد ران على عقولهم ضباب كثيف من الخرافة والوهم والأسطورة لا تكاد تخترق جدرانه السميكة ومضات نور قط !!

إن نتائج العلم بطبيعة السنن وكيفية تسخيرها يمكن استخدامها في الخير ويمكن استخدامها في الشر ، وأن هذا العلم ليس وحده بعاصم للإنسان عن الضلال وإنما هو إذا استخدم في أي مجال أثمر ثمرته المنطقية أياً كانت تلك الثمرة : خبيثة أم طيبة ، ولكنه حينما يتجه به إلى تفهم آيات الله في «الوجود» بصفتها تدل بوضوح على الكمال الأسمى والأعظم لخالق مبدع فهذه النتيجة تسوق الإنسان إلى الإيمان بالرسل وبالوحي .

وحينما يتجه العقل والعلم معاً إلى آيات الله المنزلة في «كتاب» ، والمبنيّة في سموات وأرض وأكوان يجد وحدة المصدر : في كتاب الكون المفتوح والكتاب المنزل سواء بسواء ...

ولكن الأمة التي شل قواها الفكرية الانحراف في الحكم أولاً .. والصراع حول صلاحية العقل والفكر وتخليصهما من قيود الأوهام اللاعقلية واللاعلمية ثانياً .. قد جعلا الأمة تائهة في مستنقع التخلف ، وتتبيت الأفكار الميتة الخاوية من نور العقل واعتماد الجدل العقيم القائم على غير هدى ولا كتاب منير مما أسرع بها نحو انحراف في البيئة اللاأخلاقية فلا تقويم للعمل ، ولا صدق في الحديث ، ولا سلامة في القلب ، ولا نظافة في السلوك ، مما أدى إلى تفككها وخروجها من « دائرة الحضارة » إلى « دائرة التخلف » فما لم تتخذ الأمة الأسلوب العلمي القائم على الفحص والتمحيص والتجربة منهجاً في حياتها العملية الذي به تستخلص « الحقيقة العلمية » أو ما دونها كـ « النظرية العلمية » ويكون منطقها في أمور تفكيرها منطقاً رياضياً فـ : ١ + ١ = ٢ ، لا كما هو سائد اليوم في تفكيرها القائم على التسليم في أمورها بلا برهان ، وكان يجب أن يكون شعارها أمام قضايا الفكر : (قل هاتوا برهانكم)[١٧٨] .. انه ما لم تعتمد الأمة ذلك وتعرف أن العقل « أداة الفهم » وان آيات الكون ونواميسه وآيات الوحي وقرآنه لقوم : « يفقهون » ولقوم « يعقلون » ولقوم « يعلمون »[١٧٩] .. انه ما لم يكن الأمر كذلك فستظل هذه الأمة أسيرة الضائعين في غيبوبة العقل وخدر التضليل ، وضياع الوقت في القشور الزائفة والمظاهر الخالية من أي مضمون عملي حي .

إن النظرية العلمية تقتضي اكتشاف « قوانين الأشياء » تحت شروطها هي لا تحت شروط وهمية أو تحت مجرد الدهشة والغموض السحري .. ولقد رد الأستاذ الدكتور/أحمد عروة على النظرة الساذجة إلى العلم لدى وارثي عصور الانحطاط وبيّن لهم وحدة « العلم والإيمان » بما يجعل المسلم بعيداً عن النظرة التي تتصف بالغموض والدهشة والسحر ودعاهم إلى النظرة المتصفة بالموضوعية والعقلانية والحق وذلك هو منطق السنن : ولجودة نظرته نسجلها هنا :

« من الناس من يرون أن « دياليكتيكا الطبيعة »[*] تتعارض مع حرية المشيئة الالٓهية ، وكأن الاضطراب وحده هو الشيء الالٓهي ، وكأن الارتجال المعجز هو

---

[*] دياليكتيك جدلية الطبيعة وهي نظرية علمية وليست حقيقة علمية وأولى منها « قانون الطبيعة » (Nature Law) أي « السنن » إلا أن كلمة السنن أدق وأشمل .

المنهج الوحيد عند الله لتدبير العالم . وكلما اكتشفوا علة فيزيقية لمعلول طبيعي . ظنوا أنهم قد وجهوا إلى الدين ضربة قاصمة . ومحاكمة «جاليليو» هي الشهادة في نظرهم على انهيار الإيمان . وان الأرض الموضوعة على مدارها حول الشمس قد انتزعت من يدي الله .. أي فكرة سطحية عن الله وعن الكون . تلك التي علقت بأذهان رهبان الكنيسة وبأذهان من يحكمون اليوم عليهم باسم المادية ..!! »

وفي معارضة هذه التبسيطات الساذجة ، العنيدة ، الانفعالية ، نرى الصرح العظيم للحكمة الإسلامية ، وفيها يعكس العقل والإيمان نوراً الهياً واحداً . ولا قبل لهما بأن يتعارضا دون أن يهلكا معاً . وإيمان الإنسان مقياس علمه ،

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ (١٨٠)

وكل كشف علمي ، من أي طبيعة كانت ومن أي نوع كان . لا يمكن بأي صورة أن يناقض مجال الإيمان أو أن ينتقص منه ، بل بالعكس يسهم في إثرائه والعلم الذي يتقدم داخل الإيمان ، يزيد من أبعاده . والدعاء الذي يوصي به القرآن الإنسان هو :

﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١٨١)

ولكن الإسلام يدعونا بصراحة إلى اكتشافها بالملاحظة والتفكير والدرس ، وقوانين الكون إنما هي النظام المحكم ، الذي ينبسط الخلق فيه ، والذي تدعونا هذه الآية إلى اكتشافه :

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١٨٢)

ومنذ الكلمة الأولى الموحاة وهي : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ (١٨٣)

نجد في القرآن دعوة دائبة إلى فهم العالم وكشف قوانينه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٨٤)

فلينظر الإنسان مم وكيف خلق ؟ ، ولينظر مراحل نموه منذ الإخصاب إلى الشيخوخة وإلى الموت ، وليدرس الكون ، والنجوم ، وتكوّن الأمطار ، والجبال والمحيطات ، والنباتات ، والحيوانات ، والكائنات صغيرها وكبيرها ، المعروفة منها والمجهولة ، التي تعيش معه ، ولينظر تعاقب الأيام والليالي ، والدورة الدائمة لتحول المادة الجامدة والمادة الحية ، والحياة الاجتماعية عند النمل والنحل ، ودراسة الأقوام البائدة والبحث في آثارهم وحضارتهم ، وعن علة عظمتهم واضمحلالهم ، وليمض في هذه الدراسة إلى مشكلات نشأة الكون ، التي تدعو إلى التفكير في أحدث الاكتشافات الفلكية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ (١٨٥)

بل إن فكرة سدم المجرّة ، عبّر عنها في هذه الآية : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١٨٦)

وهذه الآية الأخرى تعبر عن نسبية الزمن والأرض :

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (١٨٧)

ووحي آخر من الذكر الحكيم ، تعبّر عنه هذه الآية التي لو تنبه إلى التسليم بمعناها الحرفي عالم من علماء عصر أكثر ظلاماً من عصرنا ، لكان نصيبه أن يرمي به في النار :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (١٨٨)

وعلم الاجتماع نفسه نجد فيه أثراً لديالكتيكا النظام الالهي :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١٨٩)

ويقص علينا القرآن الأمثلة الكثيرة للأمم التي لم يبق منها سوى أحجار والذين هلكوا لأنهم لم يؤدوا رسالتهم على الأرض ، ولأنهم لم يعدلوا مع الناس واستكبروا على الله .

ولسنا من السذاجة بحيث ندّعي بأن العلم كله قد ورد في القرآن ، أو أن القرآن قد فسر نشأة الكون أو علم الأجنة ، وانما قصدنا أن نؤكد ، بلا شرط ولا قيد ، ما في علوم الطبيعة من نفحات دينية ، لأن تعمقها يؤدي إلى معرفة الله . والعلم في الإسلام هو أكبر مكمل للإيمان ، إذ أنه حتى لو اتفق له أن تقدم بمعزل عن الإيمان ، فإنه يؤدي إليه ، ويأوي منه بالطبع إلى ركن شديد .. ووجود قوانين الطبيعة ليس إلا تعبيراً عن نظام هو على مستوى الكون .. واكتشاف ميكانيكا مرتبة على وجه الإتقان ، يستطيع أن يخدع الذين يعتقدون في السحر ، ولكنه لا يستطيع أن يزعزع الذين يؤمنون بعلم الأستاذ .. وان إيماناً يريد أن يستغني عن العقل والذكاء ، إنما يشيع في الإنسان البلادة والغباء .. واذا كان قد اتفق للظلامية ، في بعض عصور التاريخ ، أن تكون هي القاعدة في كنائس معينة ، فإن هذه الكنائس قد قصرت عمداً عن أداء رسالتها الإنسانية ، فوجدت نفسها بذلك ، في ذيل السلطات الزمنية الرجعية ، التي كان من مصلحتها تبليد عقول الجماهير واستغلال جهلها ، واذا كان التقدم العلمي قد وجد نفسه عدة مرات في نزاع مع «النظام القائم» فذلك لأن النظام القائم قد ظن أنه ثابت وباق بإرادة الله ، إن رغد العيش في كنف المراكز المكتسبة قد اصطدم على الدوام بميول المراجعة والإصلاح ، وكانت حكمة الإنسان قطعاً عبارة عن تدعيم الأسس لا ليبقى في مكانه ، بل ليتيسر له أن يسير بخطى أوسع على الطريق اللامتناهي .. طريق الكمال والتقدم .

وقد كان دور الإيمان دور تحرير وازدهار للإنسان الذي لا يستطيع أن يتصور هذا التحرير وهذا الازدهار وهو يجهل نفسه ويجهل العالم ، وهذا أمر جوهري في نظر الإسلام الذي يجعل من التعليم فريضة على «كل مسلم» . ومن الجهل بحقائق الإسلام أن نتحدث عن نزاع بين المفهوم الديني للعالم ، وبين معرفته العلمية ، فالنزاع يقوم حين يكون هناك تفاوت وتناقض بين أجزاء كل

واحد ، أي حين يكون هنالك تفاوت في ذهن الإنسان بين معرفته للكون معرفة تقنية ، وبين معنى هذه المعرفة ودلالتها ، والإيمان ، من العلم ، بمنزلة الوعي من الجسم ، وانما في الانسجام بين جسم الإنسان وروحه ، يكون اكتماله .. ومهما يكن من اتساع معارفه العلمية ، فإنها لا يمكن أن تمثل من الأشياء إلا جانباً واحداً أو أن تعبر عنه . وعلى هذا النحو لا يكون الجسم الإنساني سوى جهاز آلي عجيب ، إذا غضضنا النظر عن فلسفة الوجود ، وعن المكان الذي يحتله الكائن فيها . وما من قصور هو أسوأ من قصور المشتغل بالعلم الذي يقف عند الاكتشاف الصوري للبنيات والتغيرات ، ويغمض العين عن وحدة الموضوع ومدلوله ، حتى حين لا تتكشف له تكشفاً كلياً .. ونراه يضرب الأرض بقدميه على أبواب النور ، متورطاً في حجج مصطنعة ، يقول بها أصحاب التوافق مع الدين القائم ، ذلك التوافق الذي من فرط استبعاده لله ، ينتهي إلى تأليه المادة .. ونراه في تصعيد الحقيقة وقد شلّ ذهنه ، فانحرف عن الحرية الصحيحة .. لأنه متى تم للإنسان أن يعي وجوده ووجود الكون ، لم يعد في وسعه أن يفند وجود عقل كامن يكتشف في أدق تفاصيل الكون ، وفي أصغر مظاهر الحياة .

إن الكون واحد .. ولكن تتعدد أبعاده وتتباعد حدوده بقدر ما يتم لعلمنا اكتشافه والإحاطة به .. والإيمان الحقيقي يجيء على غرار ما للكون وما لله من مثال لا متناه .. ومعرفة العالم تؤدي إلى معرفة الله .. ولذلك يقول الحديث الشريف : «من عرف نفسه فقد عرف الله» (١٩٠) .. وكأن الله أراد أن يبين تطور المعرفة العلمية تطوراً موصولاً وأن يبين اكتشافاتها المتوقعة فقال في آية تشيد بجهد الإنسان وفضل الله معاً :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١٩١)

واذا كان العلم ، في العصر الوسيط المسيحي ، قد صار الخادم المطيع للإيمان ، فإنه قد أصبح مع المادية الحديثة ، عدواً للإيمان .. وقد قيل إن عصر الإيمان قد تخلى ، في غير رجعة ، عن مكانه لعصر التقنية والعلم .. وبين هذين المفهومين المتطرفين ، ينهض في الإسلام انسجام فلسفي لا يجعل من العلم عدواً ولا عبداً .. فالإيمان والعلم ما هما إلا جانبان متكاملان ، كالروح والجسم ،

في وحدة حية شاملة .. وعصر العلم وعصر الإيمان ينبغي أن يمتزجا في رؤية للعالم جديدة تمثل في نظر الإسلام ، الحضارة الصحيحة للإنسان في اكتماله[١٩٢] .

«وقد نشر الدكتور/عماد الدين خليل مقالاً جيداً في مجلة العربي العدد ٢٤١ المحرم ١٣٩٩ هـ الموافق ديسمبر (كانون أول) ١٩٧٨ م بعنوان» :

في القرآن والمسألة العلمية *

هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم «الحديد» .. وهو من أهم الخامات وأخطرها ؟

الذي يقرأ كتاب الله بتمعن في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من (العلم) ، يجد نفسه أمام حشد من الآيات ممتدة وفق أبعاد ثلاثة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة ، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه ومنهج الكشف عن الحقائق العلمية فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة . ويعرض ثانيها لمجموعة من السنن والقوانين العلمية في مجالات العلم المختلفة وبخاصة الطبيعة والجغرافية وعلوم الحياة ، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة . ويدعو ثالثها لاستخدام هذه السنن والقوانين ، التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لأعمار العالم . فيما يعرف بالعلوم التطبيقية (التقنية) .

وما من شك في أن هناك ارتباطاً وثيقاً ومحكماً بين هذه الأبعاد ، يقود أحدها إلى الآخر ، فالمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق : السنن

(*)وهو كلام في غاية الجودة والدقة والاتقان نثبته هنا لتتم به فائدة البحث عن ضرورة التكوين العلمي واعتماد أساليب العلم ومنطقه وما يسفر عنه من نتائج ، وذلك ما يحتمه منهج الإسلام الذي دفع بالعلماء المسلمين ليضعوا الأسس لكل العلوم الحديثة حتى أن دارس تاريخ العلوم في أي مكان في العالم وبأي لغة لا يستطيع تجاهل هذه الحقيقة الساطعة ولكن وارثي فكر عصور الانحطاط يكونون اليوم عوائق تصرف الشباب إلى منابع الفكر الجاهلي بما يحملونه من ضيق فهم واستغلاق فكر وجمود لا يتيح عمق النظر والتفكير .

والنواميس التي تحكم الكون والعالم وتحمي صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز .. وهذه السنن والنواميس تمنح الإنسان - بدورها - (المعادلات) التي يتمكن بها من أن يدخل إلى صميم هذا التركيب المعجز لبنية الكون والعالم من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من «التطبيقات» العلمية تمضي بالحياة البشرية قدماً صوب الأحسن والأرقى .. وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات لكي يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاورة السماء ، وتلبية حاجاته الروحية التي بها يتميز الإنسان عن سائر الخلائق .

معطيات القرآن وفهم العالم :

صحيح أن كتاب الله ما جاء لكي يكون كتاباً علمياً ، كما هو معروف ، تماماً كما أنه ما جاء لكي يكون كتاب جغرافية أو تاريخ أو أي من حقول المعرفة المتنوعة .. وصحيح أن إلحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معاني وتفاسير علمية لم تقصد إليها البتة ، قد دفع بعضهم الآخر ، وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه ، على نفي أن تكون للقرآن أية صلة بأيما حقيقة علمية .

فإن الفعل الخاطئ ـ كما هو معروف ـ يولد رد فعل خاطئاً يساويه في القوة ويخالفه في الاتجاه ، وهكذا فإن مبالغة طائفة من المفكرين في تحويل القرآن الكريم إلى كتاب رياضيات وفلك وفيزياء وطب وتشريح ، دفع طائفة أخرى إلى وضع جدار عازل بين القرآن وبين المعطيات العلمية ، وكأن كتاب الله جاء لكي يخاطب الإنسان بمعزل عن العالم الذي هيئ له والكون الذي يتحرك فيه .. إن هذا التضاد المتطرف يجب ألا يضيع علينا الرؤية الصحيحة لموقف القرآن في المسألة العلمية .. وهو موقف واضح ومؤكد من أية زاوية نظرنا .

إن القرآن يظل في حالة حضور دائم في قلب العالم والكون ، يعايش سننهما ونواميسهما ويحدثنا عنهما . وأنه لأمر بديهي أن تتعانق معطيات العلم وتتوازيا ، لا أن تتضادا أو تقوم بينهما الحواجز والجدران .. ذلك أن مصدر العطاء واحد .. وهو الله جل وعلا ، صانع السنن والنواميس ومنزل القرآن .. خالق الكون والعالم وباعث الإنسان (قل : كل من عند الله) ليس هذا فحسب ، بل ان الإنسان

باعتباره معنياً بصنع السنن ونزول القرآن .. الإنسان بما أنه خليفة الله في هذا العالم ، ويده المريدة التي تسعى لإعماره وترقيته ، كما تؤكد النظرية القرآنية ، يقود بالضرورة إلى هذا اللقاء الأكيد بين كتاب الله وسننه في العالم .. إذ كيف يستطيع الإنسان أن يؤدي دوره في العالم ، في إطار تعاليم القرآن وشرائعه ، إن لم يتحرك ـ ابتداء ـ لفهم هذا العالم والكشف عن سننه ونواميسه ؟

التناغم بين الثنائيات :

إن مفهوم (الحركة) في الإسلام ، على خلاف عدد من المذاهب والأديان ، ينبثق أساساً عن هذا التناغم والتلاحم بين الثنائيات : الروح والمادة .. الطبيعة وما وراء الطبيعة .. الأرض والسماء . العلم والإيمان .. الإنسان والله . وأن افتقاد أي طرف من أطراف هذه المعادلة المنطقية سوف يقود إلى الفوضى والضياع ، وسوف يجرده دين الله من القدرة على الحركة والانتشار .

وها هنا ، بصدد الحديث عن الموقف من العلم ، يبدو أكيداً ذلك التناغم والتلاحم بين كتاب الله وحقائق العلم ومعطياته .

ولكن إذا كانت آيات الكتاب تتضمن حقائق ومسلمات مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، بينما تظل معطيات العلم أسيرة نسبيتها وتغيرها وقلقها وتحولها ، فكيف يلتقي المطلق بالنسبي ، والكلي بالجزئي ، والشامل بالمحدود ؟ وهل يصح أن نفسر بعض آيات القرآن على ضوء نظرية أو كشف علمي قد يتعرضان في أية لحظة للتشكيك والنقض ؟

ألا يقود هذا إلى نوع من التشكيك والتناقض يمتد إلى صميم المعطيات القرآنية نفسها ؟

والجواب يقتضينا الرجوع إلى القرآن نفسه .. إلى الأبعاد الثلاثة التي تناول من خلالها مسألة العلم هذه كما رأينا .

منهج عمل شامل :

في البعد الأول ، يطرح القرآن الكريم منهج عمل في الكشف عن سنن

العالم والحياة ونواميس الكون .. وهو منهج متساهل مرن ، لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان ، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أية بيئة .

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم ، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون .. وأعطى للحواس مسؤوليتها الخطيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب .. قال له :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (١٩٣)

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله .. إلى طعامه

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (١٩٤)

إلى خلقه ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (١٩٥)

إلى الملكوت ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١٩٦)

إلى التاريخ وحركة الإنسان في العالم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ (١٩٧)

إلى خلائق الله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٩٨)

إلى آياته المنبثة في كل مكان ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ (١٩٩)

إلى النواميس الاجتماعية ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٢٠٠)

إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الغَناء برحمة من الله ومقدرته

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ (٢٠١)

إلى الأثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار

﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ ﴾ (٢٠٢)

إلى الحياة الأولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ (٢٠٣)

ودعاه أن يحرك (سمعه) باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز فيأخذ أو يرفض .. فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ (٢٠٤)

وانتقل القرآن خطوة أخرى وسألهم أن يحركوا (بصائرهم) ، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية ، سمعية وبصرية لا حصر لها ، ومن ثم تتحمل (البصيرة) مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة

﴿ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ ﴾ (٢٠٥)

إن العقل والحواس جميعاً مسؤولة ، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار .. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الانعام

﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ (٢٠٦)

ومن ثم تتوالى الآيات ، تؤكد مرة تلو مرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها . وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها باستغلال قدراته الفذة حتى النهاية ، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء لأن هذه الانتصارات ستبوؤه مركزه المسؤول كسيد على العالمين وخليفة الله في الأرض ، وأنه بتجميد

هذه الطاقات وقفل نوافذها ، وسحب الستائر عليها ، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد : وهي منزلة البهائم والانعام

﴿ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ (٢٠٧)

وحشد آخر من الآيات بلغ ما يقرب الخمسين ، حث على تحريك (العقل) ، المفتاح الذي منحه الله بني آدم وقال لهم : افتحوا به أبواب الملكوت ، وادخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخر لكم ما في السماوات والأرض

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٠٨)

وآيات أخرى دعت الإنسان إلى (التفكير) ، العميق ، المتبصر ، المسؤول بكل ما يحيط به من علامات وأحداث وأشياء وموجودات .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٠٩)

وما يقال عن (التفكر) يمكن أن يقال عن (التفقه) وهو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير ، إذ هي الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير ، وتجعل الإنسان أكثر وعياً بما يحيط به ، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً ، مستعداً للحوار إزاء كل ما يعرض له من أسئلة وعلامات :

﴿ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٢١٠)

وأكد القرآن الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و (الحجة) و (الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها ، والقدرات العلمية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار .

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (٢١١)

العلم هو الدين

هكذا يبوء العلم ، بمفهومه الواضح ، الشامل (فاعلية) في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين ، أو المنهج الإلهي ، طريقة لها في الحياة .. ولا بد أن نضيف هنا حقيقة أخرى في غاية الأهمية تلك هي أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علمه الله أنبياءه .. على النواميس التي يسير الله بها ملكوته العظيم .. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله في (أم الكتاب) وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية .. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن . إن كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة ، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة ، الممتدة ، المتداخلة ، كما أراد لها أن تكون لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين .

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢١٢) ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (٢١٣)

﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ (٢١٤)

﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ (٢١٥)

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال ، أو حتى الإشارة إليه ، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين (٢١٦) .

دعوة لتطوير الحياة :

ونتجاوز البعد الثاني لحظات لكي ننظر إلى البعد الثالث ، فإذا به دعوة ملحة في أكثر من موضع من كتاب الله إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقيتها بمزيد من التطبيقات (التقنية) على كافة المستويات . وهو أيضاً مرن ، يتميز بالشمولية والديمومة ، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية الراهنة في مدى كل عصر ، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات المدنية لذلك

العصر ، فإذا ما حدث أن تغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية ، كان بمقدور النداء القرآني أن يمضي لكي يخاطب كل جيل أن يتحرك واحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة ، ومن خلال العلاقات المتغيرة .. ألم يدعنا القرآن الكريم إلى أن نعد لأعدائنا القوة التي نرهبهم بها ، ونحمي – بالتالي – وجودنا ودورنا في الأرض ؟ ألم تأت هذه الدعوة متضمنة هذا الموقف المرن ، الشمولي ، الممتد عبر الزمان والمكان والذي يلتقي فيه الراهن بالشامل ، والموقوت بالدائم : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

مطلق القوة ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

أكثر الأسلحة مضاء في ذلك العصر ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

ألم يؤكد في (سورة الحديد) اعتماد هذا الخام الخطير في ميادين السلم والحرب دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه ؟

هل ثمة أكثر دلالة ؟ :

سورة الحديد ؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والابداع والبناء ، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في صميم العالم ... من هذه الآية ترد في السورة

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده ، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد : (البأس الشديد) تمثلا باستخدام الحديد كأساسات للتسلح والإعداد العسكري ، «والمنافع» التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه (السلمي)

وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وانه غدا في عصرنا الراهن هذا ، وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً ؟ إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن (ترهب) أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل .. وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لتقدمها ..

ولا بد أن نلتفت – هنا – إلى هذا التداخل العميق والارتباط الصميم في آية الحديد بين إرسال الرسل وانزال الكتب معهم واقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين الحديد الذي يحمل في طياته (البأس) ، ثم التأكيد من أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله (من ينصره ورسله بالغيب) و(إن الله قوي عزيز) ، إن هذا الموقف المتشعب المتداخل يقودنا ثانية إلى أن الإسلام جاء لكي يشد الإنسان إلى أعماق الأرض ، ويدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها .. وان المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر ... وانه – بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة ، ويختار بدلاً من ذلك ، مواقع الفرار والاتكال والانتظار السائب لمعونة الله – فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته ، وسيهزم لا محالة ، ما دام قد أشاح عن الموقف القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه – بدون الاعتماد الواعي ، المسؤول الذكي الخبير ، على مصادر القوة والبأس – لن يكون هناك (نصر) ولا (تقدم) ولا (حماية) للموازين والقيم العادلة التي جاء الأنبياء عليهم السلام ، بكتبهم السماوية لتنفيذها في الأرض ، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد ، السنين الطوال ، يبكون ويتضرعون !

وهكذا حيثما تلفتنا ، عبر هذا البعد الثالث من معالجة القرآن للمسألة العلمية وجدناه يتخذ دعوة دائمة ، لا تحدها حدود ، ولا تأسرها متغيرات ولا نسبيات ، لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته .

البعد الثاني :

ونرجع إلى البعد الثاني ، حيث يطرح القرآن حشداً من الحقائق والسنن والنواميس في مجالات العلم المختلفة ، وبخاصة الطبيعة والجغرافية وعلوم الحياة ، في عدد واسع من المقاطع والآيات لا يتسع المجال لتحليلها واستعراضها .. ها هنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسرين المعاصرين إلى اعتماد أحد الموقفين اللذين سبق أن أشرنا إليهما : الموقف الأول يتكئ كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم ، والوقوع بالتالي في خطأ منهجي يقوم على تحكيم الجزئي بالكلي والمتغير بالدائم والنسبي بالمطلق .. فإذا ما حدث أن تبدلت الجزئيات والمتغيرات والنسبيات العلمية – وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم – أدى ذلك إلى إحداث شرخ أو قلق ذهني إزاء تلك الآيات التي فسرت وفق مقولات لم يتح لها الدوام . والموقف الثاني يرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث تحسباً من مصير كهذا .

الموقف الوسط :

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفاً (وسطاً) كما علّمنا كتاب الله نفسه أن نتخذ في كافة مسافات الحياة ، فلا هو بالالتصاق الكامل بمعطيات العلم المتغيرة ، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها .

إن المفسر المعاصر يجب أن يعمل عقله ، وقدراته في مجال تخصصه إذا توفرت لديه ، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفي المعادلة : الآية القرآنية والمقولة العلمية ، مستفيداً – من جهة أخرى – في الاتجاهات الحديثة التي ظهرت أخيراً في مجال التفسير القرآني ، تلك الاتجاهات التي تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه فيما يعرف بالتفسير البياني للقرآن ، ومن شأنه أن يمنح المفسر ضمانات موضوعية لنشاطه ، لتحميه من الإفراط أو التفريط في محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجميلة .

ومن خلال هذا التوازن في القدرة العلمية (التخصصية) والقدرة التفسيرية

(الموضوعية) ، يمكن المفسر أن يتحرك لكشف من الدلالات المقصودة للآيات العلمية في كتاب الله .

معطيات العلم ليست سواء :

هناك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية ، بل بداهات مسلماً بها لا تقبل نقضاً ولا تغيراً ، من مثل الدور الذي تلعبه الرياح – على سبيل المثال – في عملية الأمطار ، ومن مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموعة الشمسية ، ومن مثل المراحل التي يمر بها الجنين في الرحم ، وتغير نسب المكونات الغازية قرباً أو بعداً عن الكرة الأرضية .. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ما كان العربي يوم نزل القرآن يلم بأبعادها (العلمية) ، ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التي تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها ، كما أنه سيتكئ على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة ، فإنه سيكشف – في الوقت نفسه – جوانب الإعجاز العديدة التي تضمنها القرآن وأشار إليها .

وهنالك من الحقائق العلمية ما يحتمل أكثر من وجه ، ولكن هذه الوجوه جميعاً إنما تدور في إطار واسع مرن ليس ثمة مانع أن نحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها ، من مثل تلك الآيات التي تؤكد (النظام) الذي يمسك بناء السموات المعجز أن يتفكك ويتبعثر ويضيع .

أما النظريات التي لا تزال موضع أخذ ورد ، والتي لم تتبلور – بعد – كحقائق وقوانين وبداهات مسلم بها ، فإن بمقدور المفسر أن يكون حذراً إزاءها ، وألا يتكئ عليها إلا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذي تحتويه الآية .

ليست سواء .. معطيات العلم التي تتمخض باستمرار .. ومن ثم فإن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل أو الانفصال الكامل .

إن الإرتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والادراك من التحرك بشتى الاتجاهات ، والانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر .

ورطة الإنسان المعاصر :

والإنسان المعاصر – اليوم – في أمس الحاجة إلى يقين ديني يعيد إليه وحدته الضائعة وسعادته المفقودة وأمنه المسلوب .

وما دامت القناعة المبنية على (الحقائق العلمية) هي اليوم أكثر القناعات فاعلية للتحقق بهذا اليقين .. وما دام كتاب الله يمنحنا هذا القدر الكبير ، المعجز من هذه الحقائق التي راحت تتكشف عقداً بعد عقد وقرناً بعد قرن .. فلماذا لا نتحرك على ضوء هذه المعادلة العلمية لإنقاذ الإنسان المعاصر من ورطته بفقدان اليقين ؟

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾

وصدق الله العظيم .

معالم التوجّه نحو المستقبل

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(سورة النور ـ آية ٥٥)

واليوم والقرن الخامس عشر تدق ساعته الكونية أبواب التاريخ لتسير مع فجره الأمم نحو غاياتها التي رسمت ، وأهدافها المؤهلة لها خيراً أم شراً .

فإننا لا نريد لأمة الإسلام وقواه الحركية استلاماً للسلطان ولزمام «قيادة البشرية» في غير وضوح رؤية علمية شمولية واعية حتى لا تكون محبطة ومعيقة لمجد حضارة جديدة هي مهوى أفئدة البشر .

لا نريد لها : استلاماً للسلطان خاوياً من النور الالهي الذي يجب أن تكون أسسه وتعاليمه هي السلطان الموجه للأمة فليست غاية أمة الإسلام وقواه الحركية تكراراً لمرحلة الانحراف في الحكم منذ الانحراف عن مبدأ «الشورى» ـ نقض عروة الحكم ـ وحتى ختام الانحرافات ـ نقض عروة الصلاة ـ فإن المشكلة لا تكون حلاً ، وسبب الداء لا يكون علاجاً .. لا نريد لها ، كذلك : تغليباً لمذهب إسلامي على آخر ، أو تبني أي حكم في مسألة أو آراء فرقة اجتمعت على رأي .. !!

لا نريد للسلطان أن يتبنى مذهباً أو فرقة تفرض فهمها ورأيها على الآخرين فتبتدئ مرحلة الصراع المذهبي من جديد ، وتتناحر الأمة فيما بينها فيكون الاختلاف المنهى عنه والشقاق المدمّر .

وإنما نريد لها أن تكون «إسلامية» تزدهر تحت ظلها الوارف مائة مدرسة ومدرسة وتتفتح فروعها بأزهار الفكر المتنوعة تحت ضوابطها العامة وقواعدها المرنة «ونتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه» .

فخلاف الإفهام لا يفسد للود قضية :

في الـــرأي تصطرع العقـــول وليس تضطغـــن القلـــوب

وهذا السلطان كذلك ليس احياءاً لأشكال مضى زمنها ومرت في صفحات التاريخ .. التاريخ المكتشف الدائم لأشكال ووسائل متجددة وإنما هو عودة إلى منهج خالد لا يموت ، هو كأحد الحقائق الكونية الباقية يضع فيه كل زمن

متجدد أشكاله الحية التي تضمن له التطبيق وتهيئ لنوره أن لا تحجبه الظلمات .

لقد نجحت في بلاد المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري الحركات القومية ذات الطابع الرأسمالي والاشتراكي ، نجحت في استلام السلطة ولكنها في ذات اللحظة فشلت فشلاً ذريعاً ... وأنهت نفسها لدى كل ذي عقل ، فطغيان طواغيت المال في النظام الرأسمالي قد فشل في كف السعار المتجه بنهم لا يشبع ، نحو عبادة المال ، وفشل بشكل أكبر في إقامة « عدالة مالية » وبناء « حرية سياسية حقيقية » ونجح فقط في خلق الملق والنفاق والانقسام بين الإنسان وأخيه الإنسان وتوجيه الفرد إلى مهاوي الانحلال وإطلاق اشباع الغرائز في غير ما خلقت له ، في مجتمع مريض هش لا مكان فيه لتقويم منحرف ، ولا إصلاح معوجّ .. وكما فشل النظام الرأسمالي فإن نظام الاشتراكية لم يكن أكثر حظاً من سلفه الذي تمخض عنه وانبثق من أجوائه ومناخاته الفكرية والنفسية ، فطغيان الفردية البالغة الاجرام في « النظام الاشتراكي » قد فشل كذلك إلا من فوهة دبابة أو فرقعة طيارة ، أو مشنقة إعدام أو هزيمة مع عدو أو سلوك غدر ذليل ، أو اغتيال جبان رعديد أو عار يطلق عليه انتصار .. ! ! ذلك هو كل ما استطاعت الاشتراكية العربية تقديمه لشعوبها على مستوى ممارسة الاستقلال الوطني والتحرر الاجتماعي ، والثورة العقائدية ، ولم تستطع أن تتقدم في سبيل بناء حضارة حقيقية خطوة واحدة . ! !

لقد بدأت النهضة الإسلامية مع صيحة جمال الدين الأفغاني ، مع بدايات القرن ، وما تلا ذلك من محاولات « بناء الإنسان المسلم » ليستعيد مكانته في التاريخ ويصنع حضارته ولكن الوسائل العلمية القائمة على « سنن إصلاح المجتمعات » كانت تنقص تلك الدعوات وحتى البرامج اللاحقة لها إذ أنها كانت في « محصلتها الأخيرة » تهدف إلى أن تمد « المجتمع الإسلامي » بالوسائل الملائمة للدفاع عن ذاته أو لتبرير نفسه بدل أن تقوم بتحويل « الشروط الواقعية » و « الأساسية » التي تكون نتائجها « بمقتضيات السنن » تحولاً للمجتمع من موقف « تبرير الوجود والدفاع عن النفس » إلى موقف « وسائل القوة التي يملكها » و « العطاء الحضاري » الذي يسهم به .. ومع أن الدفاع عن قيم الأمة ومثلها قد حفظ التيار الإسلامي وسط تيارات متعددة إلا أن معطيات « القابلية للاستعمار » قد تركت

دون مساس فلم يكن هناك منهج بناء خلاق يقضي على السلبيات ويسير بالأمة نحو «إيجابيات الابتكار» وصناعة «التيسيرات المادية» وامتلاك «وسائل القوة» لقد اقتصرت على إظهار مزايا ما عندنا من مثل عليا ومنهج صالح لكل زمان ومكان وأظهرت نواقص المناهج الرأسمالية والاشتراكية على السواء ، ولكنها لم تقل لنا ما هي السبل العلمية المتاحة لتحقيق منهجنا المبدع الخلاق الصالح لكل زمان ومكان .

إن ذلك لا يُعزى إلى «فقدان الوسائل» وإنما يرجع إلى فقدان «الأفكار الصحيحة» فهي وإن وجدت فإن تيار اللامعقولية يغرقها في بحره الآسن ، وقد أشرنا إلى ذلك في أول هذه الدراسة وفي «سلبيات الحركة الإسلامية» وفي فصل «التفرق في الدين» .

لقد ابتدأ العالم الإسلامي يقظته في الوقت الذي ابتدأت اليابان نهضتها تقريباً ، وفي خلال نصف قرن تقريباً كانت اليابان قد دخلت «أسرة القوى الكبرى» ، لقد أنشأت اليابان جميع «الشروط العلمية» المتفقة مع «سنن بناء الحضارة» لتحقيق تلك الغاية بينما حمل منهجنا للنهضة بمختلف صوره التقليدية والسلفية والخاطئة والثورية المزيفة كل عوائق الاحباط عن التقدم خطوة واحدة في سبيل إنشاء شروط «حضارة» .... وهكذا لم تصل هذه النهضة إلى غايتها على مدى أكثر من مائة عام ، فهي قد اتجهت إلى ما أطلق عليه مفكر علم الاجتماع (مالك بن نبي) : «الشيئية» أي تكديس الأشياء بدلاً من الاتجاه نحو فكرة مركزية خلاقة مبدعة تشكل مجتمعها وتسير به نحو خلق شروط حضارته ذاتها .

ونحن هنا ندرك مع المفكر الجزائري (مالك بن نبي) ضمن حد معين الصلة القائمة بين إدارة وقدرة مجتمع يبني ذاته على «قاعدة حضارة» وليس على «قاعدة منتجاتها» وهذا ما يفسر لنا كيف أن اليابان قد نجحت حيث لم يحقق العالم الإسلامي نصراً حاسماً على التخلف لأن نشاطه قد طبق في عالم الأشياء والمنتجات بدل أن يطبق ضمن «النسق البشري» و «نسق الأفكار» ، ونعني بالأفكار تلك التي تقوم على أسس من العقل والفهم والعلم .. والمرتبطة بالعمل الموصل إلى الغايات .. فالمسألة لا تتمثل في إعادة تلقين المسلم عقيدته ولكنها تتمثل في إعادة

تلقينه استخدام فعاليتها في الحياة وانها غير عائق له عن صنع حضارة خاصة به بل هي دافعة له إليها وضرورة حتمية بالنسبة لظروفه التاريخية والنفسية والمصيرية .. إن القرن الخامس عشر الهجري إذا كانت الأمة قد استفادت من دروس القرن الرابع عشر الهجري ليدعو هذه الأمة إلى اعتماد منهج العقل والفهم والعلم في ضوء القرآن «دليل العمل» لبناء الإنسان ومن ثم انطلاقه لإنشاء حضارة .. البشرية كلها ترقب بزوغ فجرها المنتظر .

وفي القرن الخامس عشر الهجري سيكون من مهام المسلم تصحيح الانحراف الذي اعترى مسار الأمة وذلك بإعادة «العروة الأولى» التي نقضت بنقض «عروة الحكم» وتحقيق بشارة رسول هذه الأمة ، تلك البشارة الواعدة والموجهة والمحذرة :

١ – تكون النبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء * أن يرفعها .

٢ – ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء .

٣ – ثم يكون ملكاً عضوضاً فيكون ما شاء الله ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها .

٤ – ثم ملكاً جبرية .

٥ – ثم خلافة على منهاج النبوّة . [٢١٧]

وأن أمة الإسلام والقرن الرابع عشر يؤذن بوداع تمر في معظمها اليوم ، بالمرحلة الرابعة ـ الحكم بالقوة المسلحة ـ أي الانقلابات الجبرية ، جزاء غفلتها عن حقها وانحرافاتها عن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وتباشير المرحلة الخامسة ، اليوم ، لائحة على الأفق تبشر بفجر لا يظلم نوره يحقق لها تأويل قول الله تعالى :

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [٢١٨]

(*) المشيئة وفق سنن الله التي وضعها بالحق تمضي فيها الأسباب إلى نتائجها «ذلك تقدير العزيز العليم» .

وقول نبيها :

« ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » [٢١٩] .

وأمة الإسلام بتباشير المرحلة الخامسة التي ومض بها الغيب خلال نور الوحي مدعوة ، وبعد الدروس البليغة التي تلقتها عبر العصور والأجيال والأزمنة أن تتخلص من أسباب سوآتها وتصنع أسباب عزتها وكرامتها وما يؤهلها لاستلام زمام قيادة البشرية نحو حضارة لم تعرف البشرية لها مثيلاً أو ضريباً .

إن عليها أن تتجاوز سلبياتها جملة وتفصيلاً وتطهّر تفكيرها العام من الأفكار الخاطئة التي لا يساندها عقل ولا علم ولا فقه لسنن الله ولا يضيء أُلقَها الوحي فيعصمها من الزلل .

ومع التمهيد للمرحلة الخامسة سيكون من مهام المسلم في القرن الخامس عشر الهجري : إقامة « دولة الإسلام » على الأرض .. الدولة التي تضم « الديار الإسلامية » والتي تتيح لخصائص الشعوب المتنوعة : النماء والازدهار ، والتي تفجر طاقات الحرية في كل وحدة من وحدات المجتمع ضمن « وحدة قواعدها العامة » « وأصولها الواحدة » وعلى أساس من السلطان المنبثق من الأمة « باختيارها » وإرادتها الحرة ، وتحت رقابتها العامة ، رقابة كل فرد في الأمة .. والخاصة عن طريق المؤسسة الخاصة بالرقابة ... ذلك السلطان القائم على المؤسسات حتى لا تتيح الأمة لطاغية الظهور أو الاستعلاء وحتى تطبق ما أمرها رسولها محذراً ومنذراً .

« كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، **ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه عليه قصراً** .. أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ويلعنكم كما لعنهم » [٢٢٠] .

والأطر هو : « الرباط والعقد » .. والقصر هو : اتخاذ ما يضمن من الوسائل أن لا يفرط مستبد على الأمة أو يطغى .

ولا يتحقق ذلك كما يتحقق في قواعد موضحة تبين .. وعقود مفصلة لمؤسسات لا يمكن تجاوزها مع استفادة دائمة من تقدم الإنسان في وسائل الخير .

تلك المؤسسات هي :

(١) مؤسسة أولي الأمر .. وهم :

(أ) السلطان التنفيذي «رئيس الدولة» بالترشيح والإنتخاب والبيعة وفق مواصفات يحددها دستور الأمة .

(ب) السلطان التنظيمي والتشريعي «مجالس الشورى» بالانتخاب وفق مواصفات وقواعد يحددها «دستور الأمة» .

(٢) السلطان القضائي :

(أ) «القضاء العام» وفق شريعة الله وفقه الإسلام العام ــ القانون العام ــ وهو حر .. لا سلطان لأحد عليه .

(ب) الاحتساب العام :

الاحتساب حق لكل فرد من أفراد الأمة بشكل عام ، وإقامة مؤسسة من مؤسسات الدولة تقوم بهذه المهمة لا يتعارض مع حق الأفراد في الاحتساب الفردي ، إذ هو تأكيد لهذا الحق نيابة عن كل الأمة ، وهو إحدى ضمانات العدل لتطبيق الشرع وحماية الأمة من التعسف في استخدام التشريعات والنظم .

والمهمة الأساسية لهذه المؤسسة هو تتبع أي انحراف عن معروف ، أو إخلال بحق أو اتجاه إلى منكر ، أو إخلال بتشريع ، أو تعسف في تطبيق قانون .. أو مظلمة تقع على مخلوق .. ومتى توافرت لديها أدلة أي قضية من هذا النوع تقدمت إلى القضاء ليقول كلمته الفصل .

(جـ) محكمة الكتاب والسنة العليا :

تختار هذه المحكمة وفق مواصفات وقواعد يحددها «دستور الأمة» يرجع إليها عند الاختلاف والتنازع مع أولي الأمر وحكمها هو القول الفصل .

وفي القرن الخامس عشر الهجري يجب أن تنجز أمة الإسلام ودولة الإسلام :

« العدالة المالية » ...

في توزيع الثروة واكتسابها بإقامة اقتصاد تعاوني تكافلي يضع منهج الإسلام في السياسة المالية موضع التنفيذ ويهيئ للمال أن يدور دورته الطبيعية ، فلا يكون دولة بين الأغنياء .. إذ يهيئ « المنهج الإسلامي المالي » بطبيعته الفريدة ما يكفل « الحقوق الأساسية » للإنسان : « حق العمل وتوفيره » وما ينتج عنه من « مسكن ملائم » و « قوت كاف » و « علاج » و « تعليم » و « راحة » وضمانات حين « العجز » و « الغرم » و « نقص الكفاية » فيتم بذلك « الأخوة الحقة » و « الجسم الواحد » الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .[(٢٢١)]

وفي القرن الخامس عشر الهجري على الأمة وقادتها ودعاتها أن تحمل :

« رسالة الخير » ...

إلى ما تطلع عليه الشمس في الأرض التي وضعها الله للأنام فتملأ حياتهم بنور الخير الذي يمنحهم أقصى ما يمكن من سعادة النفس وطمأنينتها ، وسعادة الحياة وزينتها وبهجتها ، وما يتيحه العقل البشري من تيسيرات مادية ، وفوق ذلك تمهد للإنسان النعيم الخالد الذي لا يزول ولا يحول ، ولا يبغي الإنسان عنه حولاً في دار الإقامة الدائمة حيث ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

ان برسالة الخير وحدها تحققت في واقع الحياة وفي الأنظمة القانونية المطبقة في دار الإسلام ، وفي الأنظمة القانونية الدولية حقوق الإنسان لا كما هي في القرن العشرين مجرد إعلان له صفة الإلزام المعنوي المجرد من أي قوة أو صفة قانونية تشريعية تجعله حقيقة واقعة في حياة الناس .... ولقد لخص الإمام المجدد أبو الأعلى المودودي هذه الحقوق كما طبقها الإسلام واقعاً في حياة الناس القانونية والعملية مع مقارنتها بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان . أجمل وأوفى بيان مدعوم بأدلة الكتاب المبين والسنة المبينة والتطبيق العملي . ولجودة هذا التبيين والتوضيح نرى أنه من المفيد الذي يزيد الهدف العظيم : « الخير في الأرض » جلاءاً ووضوحاً ، أن نورده هنا بنصه :

الاسلام وحقوق الإنسان الأساسية

إن تصور حقوق الإنسان الأساسية ليس جديداً علينا نحن المسلمين وقد يبدأ في نظر الآخرين بميثاق الأمم المتحدة أو الـ (Magna Carta) الإنجليزي ، لكن بدايته عندنا بعيدة في القدم والعراقة .

وأرى من الضروري ـ قبل إلقاء الضوء على حقوق الإنسان الأساسية ـ أن أعرض باختصار لبداية فكرتها .

البحث عن الحقوق الأساسية ... لماذا ؟

من العجيب حقاً أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يزال البحث والسؤال عن حقوقه الأساسية يظهر بين أفراده أنفسهم . فالمخلوقات الأخرى ـ وما أكثرها في هذا الكون ـ أعطتها الفطرة حقوقها تلقائياً ، ولا تزال تنالها دون تحمل عناء التفكير في أمرها ومشقة السعي للحصول عليها . ولكن الإنسان وحده هو المخلوق الذي يظهر السؤال عن حقوقه وتقتضي الضرورة تحديدها وتعيينها .

كذلك من العجيب أيضاً أن أي نوع آخر من المخلوقات في هذا الكون لا يعامل أفراده كما يعامل الإنسان بني نوعه ، فحتى الحيوانات لا نرى نوعاً منها يهاجم نوعاً آخر من أجل اللذة المجردة أو من أجل أن يصبح حاكماً عليه وسيداً . وإذا كان قانون الطبيعة قد جعل حيواناً غذاء لحيوان آخر ، فإن تعدي الأخير وهجومه على الأول يقف عند حد الغذاء لا أكثر ولا أقل وأي حيوان مفترس لا يطارد الحيوانات الأخرى دون سبب بعد أن يشبع غريزة الجوع في ذاته ، فهو لا يسلك مع بني جنسه ما يسلكه الإنسان مع أفراد نوعه . واختيار الإنسان هذا السلوك غير العادي في الدنيا لهو في الغالب نتيجة ما حباه الله من فضل وشرف وعبقرية وقوة إبداع .

إن السباع لم تجهز حتى اليوم جيوشاً حربية كرارة ، ولم يستعبد أي كلب غيره من الكلاب الأخرى ، كذلك لم تقم ضفدعة بإغلاق أفواه غيرها من الضفادع ومنعها من الكلام والحديث . فقط الإنسان وحده هو الذي رأى الا حاجة به إلى قوانين الله تعالى ، وطفق يستغل ما منح من قوى وطاقات فإذا به يصب

جحيم الظلم والجور على بني جنسه . ومنذ وجد الإنسان على وجه الأرض والحيوانات لم تزهق أرواح آدميين بقدر ما أزهق الإنسان من أرواح بني نوعه في الحرب العالمية الثانية وحدها مما يدل دلالة واضحة على أن الإنسان يجهل تمام الجهل حقوق الآدميين الأساسية .

والله وحده هو الذي هدى الإنسان في هذا المجال وعرفه حقوق الإنسان عن طريق أنبيائه ، لأن خالق الإنسان الحقيقي هو الوحيد الذي بمقدوره تحديد حقوق خلقه ، ومن ثم فقد ذكرها لنا وبيّنها بالتفصيل .

حقوق الإنسان في العصر الحاضر :

يجدر بنا قبل أن نخوض في الحديث عن بنود الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان أن نلقي نظرة عابرة على تاريخ تطور الإحساس بحقوق الإنسان :

(أ) لم يكن الـ (Magna Carta) الذي طبقه الملك «جان» في انجلترا عام ١٢١٥ م إلا نتيجة ما مارسه أمراؤه «البارونات» عليه من ضغط ، فكان بمثابة معاهدة بين الملك وأمرائه وجاءت مواده في جانب مصالح الأمراء بقدر أكبر على حين لم يشتمل أي بند فيه على شيء يتعلق بحقوق العامة من الناس في قليل أو كثير . فلما تفحصه الناس في العصور التالية وقرأوا بين سطوره ما قصده كتابه الأصليون من معنى تملكتهم الدهشة والحيرة ، ورأى فيه خبراء القانون في القرن السابع عشر الميلادي أنه منح الشعب الانجليزي حقوق التحقيق في الجريمة أمام مجلس قضاء وجهاً لوجه ، والتظلم ضد الحبس دون اقتراف جريمة (Rights of Habeas Corpus) والتحكم في سلطات فرض الضرائب .

(ب) أثر ميثاق (Tom Paine) ١٧٣٧-١٨٠٩ م الخاص بحقوق الإنسان في أفكار الغربيين تأثيراً ثورياً كبيراً إذ أشاع هذا الميثاق فكرة حقوق الإنسان في الدول الغربية على نطاق واسع عام ١٧٩١ م ، ولم يكن هذا الشخص يقول بدين الهامي بل على العكس كان ذلك العصر عصر الثورة

على الدين . ومن ثم فهم عامة الغربيين أن الدين يخلو من تصور لحقوق الإنسان .

(جـ) كان «إعلان حقوق الإنسان» (Declaration Of The Rights Of Man) الذي ظهر عام ١٧٨٩ م أهم وثائق الثورة الفرنسية ، وكان ثمرة الفلسفة الاجتماعية في القرن الثامن عشر خاصة نظرية «روسو» العقد الاجتماعي .

وقد تضمن الحقوق الفطرية فيما يختص بحاكمية الشعب والحرية والمساواة و «الملكية» كما شمل أيضاً حق التصويت والانتخاب وحق التشريع وحق تحكم الرأي العام في فرض الضرائب وحق التحقيق في الجرائم أمام مجلس قضاء (Trial By Jury) وغيرها من الحقوق . وقد وضع مجلس التشريع الفرنسي في عصر الثورة هذا الإعلان كي يوضع في بداية الدستور على أن تراعى مواده وبنوده عند تدوين الدستور .

(د) الإصلاحات العشرة في الولايات المتحدة الأمريكية وقد حوت معظم الحقوق المترتبة على فلسفة الديمقراطية البريطانية .

(هـ) الإعلان الهام لحقوق الإنسان وواجباته الذي قبلته الدول الأمريكية في مؤتمر «بجوتا» عام ١٩٤٨ م .

(و) إجازات الأمم المتحدة في ظل الفلسفة الديمقراطية كثيراً من المواثيق الخاصة بحماية الحقوق وتأكيدها ، كان آخرها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

تم طرح القرار المذكور على الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٤٨ ، ولكنه لم يصبح ساري المفعول إلا في ٥١/١/١٢ حيث صدق عليه أكثر من ثلثي الأعضاء ، وقد يستلزم هذا التوضيح إعادة النظر في كلمة «ونفذ في ١٢ يناير ١٩٥١» .

كذلك عرف القرار قتل الجنس البشري بأنه القيام بأي فعل من الأفعال التالية بغية القضاء على أية جماعة قومية أو عرقية (Ethnical) أو جنسية أو دينية ...

ويبدو لي أن كلمة أخلاقية (Ethical) محرفة عن (Ethnical) ولذا تمت ترجمتها إلى أخلاقية بدلاً من عرقية .

١ – قتل أفراد هذه الجماعة .
٢ – إلحاق أضرار بدنية أو عقلية بها .
٣ – فرض ظروف معيشية عليها من شأنها أن تدمر بقاء أفرادها الجسماني كلياً أو جزئياً .
٤ – اتخاذ إجراءات جبرية لمنع التوالد فيما بين هذه الجماعة .
٥ – نقل أولاد هذه الجماعة من شخص إلى آخر بالقوة والإكراه .

ويتضح من مقدمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ووفق عليه في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ م أن من بين جملة أهدافه تأكيد الإيمان بتساوي البشر رجالاً ونساء في العزة والكرامة والأهمية والحقوق الإنسانية الأساسية ، وتحقيق التعاون العالمي في العمل على احترام حقوق الإنسان ومنحه كل الحريات الأساسية دون تفريق على أساس الجنس أو النوع أو اللغة أو الدين .

« تتعهد الدول الأعضاء بالتعاون مع الأمم المتحدة لتحقيق (أو إنجاز) الانتشار والاحترام العالمي لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية » .

ولم يعترض ممثلو أي شعب على أية مادة من مواد هذا الإعلان لأنه كان مجرد تعبير عن مبادئ عامة لم يفرض تنفيذها واتباعها على أحد ، فهو ليس معاهدة ينبغي على الحكومات الموقعة عليها تنفيذ بنودها بحيث يفرض عليهم الإلزام القانوني طبقاً للقانون الدولي ، وإنما ذكر فيه بوضوح أن ما تضمنه يعد معياراً أو نموذجاً يجب الاجتهاد في احتذائه والوصول إليه . ومع هذا فقد امتنعت بعض الدول عن التصويت في جانب هذه الحقوق أو ضدها .[(٢٢٢)]

وأمامكم ما يجري في العالم الآن من وأد لكافة حقوق الإنسان الأساسية في ظل هذا الإعلان وتحت سمعه وبصره ، وممن ؟ من الدول العظمى المتحضرة التي وقّعت بيديها عليه .

يتضح من هذه العجالة السريعة أمران : الأول أن تصور حقوق الإنسان في العالم الغربي لا تاريخ له ولا وجود قبل قرنين أو ثلاثة . والثاني أن هذه الحقوق – بالرغم من أن العالم ما يفتأ يرددها ويطنطن باسمها – ليس وراءها أية سلطة

أو قوة منفـذة (Sanction) ، بل هي مجرد أمان ورغبات صبت في كلمات وألفاظ ساحرة براقة .

ولو نظرنا إلى الإسلام لرأيناه قد أقر إعلان حقوق الإنسان في كتابه الكريم وهو ما أذاع ملخصه الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع . ويعد أقدم بكثير من إعلان الأمم المتحدة ، واتباعه فرض على الأمة الإسلامية سواء من الناحية الدينية أم الخلقية . وقد ترك لنا النبي عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون أمثلة عملية لتنفيذ هذا الإعلان لا يعد لها مثيل قط .

وأذكر لكم في السطور التالية مختصراً لما أقره الإسلام من حقوق للإنسان :

(١) حرمة الروح أو حق الحياة :

ورد في القرآن الكريم ذكر أول حادثة قتل ، وكانت أول واقعة في التاريخ الإنساني أزهق فيها إنسان روح إنسان آخر فاقتضى الأمر حينذاك أن يعرف الإنسان احترام الروح ، وحق كل إنسان في الحياة .. ثم يقول القرآن بعد ذكر هذه الواقعة :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(سورة المائدة ـ ٣٢)

ولقد أقر القرآن في هذه الآية أن قتل أي إنسان يعد قتلاً للإنسانية جمعاء ، وفي مقابل هذا جعل حماية روح أي إنسان تعدل حماية أرواح النوع الإنساني بأسره . وبعبارة أخرى لو اجتهد إنسان في حماية الحياة الإنسانية فقد أحيا الإنسان ذاته . ويا له من جهد خير حتى أن عد مساوياً لإحياء الإنسانية كلها باستثناء حالتين :

الأولى : من قتل شخصاً عن عمد يقتل قصاصاً منه .

الثانية : من عاث في الأرض فساداً فقتله حلال .

فالله تعالى بين أصول ومبادئ حماية روح الإنسان منذ بداية التاريخ الإنساني . أما الفكرة التي تزعم أن الإنسان قد خلق في ظلام وتيه ، وأنه قتل العديد من

بني جنسه ثم فكر في مرحلة ما في حتمية الإقلاع عن قتل بني نوعه ، إنما هي فكرة خاطئة من أساسها وتقوم على سوء الظن بالله تعالى ، لأن القرآن يذكر لنا أن الله هدى الإنسان منذ بداية خلقه ، وأن هدايته له تضمنت تعريفه بحقوق الإنسان على الإنسان .

(٢) حماية الضعفاء :

والأمر الثاني الذي يخبرنا به القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام أن التعدي على النساء والأطفال والمسنين والجرحى والمرضى أصدقاء أم أعداء أمر غير مشروع بأي حال من الأحوال إلا إذا كانوا أنفسهم مشتركين في الحرب ، وما عدا ذلك من أحوال فالإسلام يمنع فيه الاعتداء عليهم منعاً باتاً . وهذه المبادئ ليست قصراً على شعبه وقومه بل هي مبادئ ينبغي اتباعها تجاه الإنسانية كلها .

وقد وضع النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر قواعد واضحة ، وكان الخلفاء الراشدون عند إرسالهم الجيوش لملاقاة العدو يوصونهم ألا تنال أيديهم ـ أثناء هجومهم على العدو ـ طفلاً أو امرأة أو عجوزاً أو جريحاً أو مريضاً .

(٣) صون كرامة النساء :

والحق الآخر الذي نعرفه من آيات القرآن وتفصله لنا أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن عصمة النساء يجب احترامها في كافة الأحوال . يعني أنه لو قبض على نساء العدو أثناء الحرب فلا يجوز لجندي مسلم أن يمسهن بأذى لأن فعل السوء مع أي امرأة حرام تماماً في نظر القرآن بغض النظر عما إذا كانت هذه المرأة مسلمة أم غير مسلمة ، من نفس القوم أو من قوم آخر ، من دولة صديقة أم عدوة .

(٤) الحماية الاقتصادية :

وثمة مبدأ أساسي في الإسلام هو أن للجائع ـ تحت أي ظرف من الظروف ـ الحق في أن يحصل على الطعام ، كما أن للعريان الحق في حصوله على كساء .. وعلينا أن نقدم للجريح والمريض وسائل العلاج والدواء دون اعتبار لكون هذا

الجائع أو العاري أو الجريح أو المريض عدواً أم صديقاً ، لأن هذا حق من الحقوق العامة (Universal) يجب معاملة الجميع على أساسه حتى ولو كانوا أعداء . فإن وقع في يدينا أسرى من أفراد العدو ففرض علينا ألا نتركهم جياعاً عرايا ، كما علينا علاج مرضاهم وجرحاهم . (٢٢٣)

(٥) العدل والإنصاف :

والعدل مع بني الإنسان مبدأ أساسي حتمي من مبادئ القرآن الكريم .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾

(سورة المائدة ـ آية ٨)

ويعيّن الإسلام في هذه الآية المبدأ الذي لا بد من اتباعه مع الإنسان فرداً أو جماعة بإنصاف تام في كل الظروف ، فهو يرى أن من الخطأ الكبير أن نسلك مع الأصدقاء سلوك العدل والإنصاف ونغفله مع الأعداء .

(٦) التعاون في الخير وعدم التعاون في الشر :

كذلك بيّن القرآن لنا مبدأ هاماً هو التعاون مع كل فرد في أمور الخير والحق وعدم التعاون مع أي إنسان في الشر والظلم ، وعلينا أن نشارك في الخير ولو كان صادراً من جانب الأعداء .

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾

(سورة المائدة ـ آية ٢)

ومعنى البر لا يقتصر على الخير فقط بل يستخدم هذا اللفظ في اللغة العربية للدلالة على إظهار الحق . وعلى هذا فمساعدتنا أي إنسان على التقوى وعلى أدائه حقوق الآخرين مبدأ هام من مبادئ القرآن .

(٧) حق المساواة :

لقد أكد القرآن على مبدإ تساوي كافة النوع الإنساني أيما تأكيد ، وقال : لو ثمة فضل لأحد من أفراده فهو في الأخلاق والإيمان ...

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾

(سورة الحجرات ـ آية ١٣)

فأول ما ذكره القرآن في هذه الآية أن أصل الإنسانية كلها واحد ، وأن اختلاف الأجناس والألوان والألسنة ليس في الحقيقة سبباً معقولاً في تقسيم الإنسانية والتفريق بينها .

ثانياً : إن الله أوجد هذا الاختلاف بين الشعوب للتعارف فحسب ، وبألفاظ أخرى ليس لأي عشيرة أو قبيلة أو شعب فضل يرفع من حقوقه ويزيد من شأنه ، ويحط من قدر الآخرين ، وما خلقه الله من فروق تتمثل في الصور والأشكال أو اللغات والألسنة ليست مدعاة للتفاخر ، بل هي وسائل نميز بها بين أفرادها نوعنا . ولو أن بني الإنسان كلهم على شكل واحد ولغة واحدة ولون واحد لما أمكن التمييز بينهم . فهذا التقسيم تقسيم فطري طبيعي لكنه ليس أساساً لهضم حقوق الآخرين أو التفريق بينهم دون ذنب جنوه . أما الافتخار والتعالي فعلى أساس الناحية الأخلاقية .

وقد أوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه المعاني بطرق مختلفة وقال في خطبته بعد فتح مكة :

« لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ولا فضل للأنساب » .

ويعني أن الأفضلية على أساس الدين والتقوى ، فليس هناك إنسان خلق من فضة وآخر من حجر وثالث من طين .. بل كل الآدميين سواء . (٢٢٤)

(٨) حق اجتناب المعاصي :

كذلك أقر الإسلام مبدأ آخر هو ألا حق لأحد أن يأمر الإنسان بارتكاب المعاصي ، فالإنسان لا يجب بل ولا يجوز له إذا ما أمر بمعصية أن يطيع هذا الأمر لأن قانون القرآن يقضي بأن لو أحد الضباط مثلاً أمر من هم أقل منه رتبة ليقوموا

بأعمال غير مشروعة ، أو أمرهم بالتعدي على أحد دون سبب فلا يجوز لهم طاعة هذا الأمر . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

إن ما أقر الخالق بحرمته وعدم مشروعيته ، أو وصفه بأنه معصية لا يحق لمخلوق أن يأمر أحداً بارتكابه . فليس من حق من بيده إصدار الأمر أن يصدر أمراً بالمعصية ، كما أن من يصدر إليه مثل هذا الأمر لا حق له في طاعته وتنفيذه .

(٩) حق رفض طاعة الظالم :

ومن مبادئ الإسلام العظيمة أن الظالم ليس له على الناس حق الطاعة وقد جاء هذا في القرآن الكريم حين أقر الله تعالى سيدنا ابراهيم إماماً وقال : «إني جاعلك للناس إماماً» ، فسأل ابراهيم ربه «ومن ذريتي» فأجابه الله «لا ينال عهدي الظالمين» البقرة ١٢٤ . والعهد في هذه الآية مستعمل بمعنى اللفظ الانجليزي (Letter of Appointment) .

فالله تعالى يقول في هذه الآية : أن ليس لدى الظالمين تصريح أو أمر من الله بمطالبة الآخرين بطاعتهم [٢٢٥] ، ولذا ذكر الإمام أبو حنيفة ألا يحق لظالم أن يؤم المسلمين فإن تمكن من ذلك فلا تجب على المسلمين طاعته .

(١٠) حق الاشتراك في العمل السياسي :

قرر الإسلام للإنسان ضمن ما قرر من حقوق أساسية حق اشتراك كل أفراد المجتمع في الحكومة ، إذ لا بد وأن تكون الحكومة بمشورة الأفراد . يقول القرآن «ليستخلفنهم في الأرض» النور ٥٥ ، وقد جاء الضمير هنا في صيغة الجمع فقال إننا سنستخلف القوم كلهم لا بعض أفراده . فالحكومة ليست لفرد أو أسرة أو طبقة ، لكنها حكومة الأمة بأسرها وتتكون بمشورة الأفراد كلهم «وأمرهم شورى بينهم» الشورى ٣٨ «وشاورهم في الأمر» آل عمران ١٥٩ يعني أن الحكومة تسير بالتشاور فيما بين الأفراد . وتوضح كلمات عمر رضي

الله عنه هذا الأمر توضيحاً تاماً إذ يقول : «ليس لأحد أن يلي أمر المسلمين دون مشورة منهم» .

فمن رضي به المسلمون ولّوه أمرهم ، ومن لم يرضوا به فلا حكم له عليهم ، وعلى هذا يقيم الإسلام الحكومة على مبادئ الشورى والديمقراطية . ومن سوء حظنا أن لا يزال يفرض علينا عبر أدوار تاريخنا حكام غير شرعيين . وليكن معلوماً أن الإسلام لا يبيح لنا تولية مثل هؤلاء الحكام وتوليهم السلطة ليس إلا نتيجة حتمية لحماقاتنا .

(١١) حماية الحرية :

لا يمكن في الإسلام سلب حرية أي إنسان إلا بالعدل والإنصاف . يقول سيدنا عمر رضي الله عنه «لا يؤسر رجل في الإسلام إلا بحق» ، والحق من وجهة نظره هنا هو ما يسمى الآن تحقيقاً قانونياً عادلاً . أو بالتعبير الانجليزي (Judical Process of Law) يعني يشترط لسلب حرية انسان مّا وجود تهمة موجهة ضده ، وأن يعطى فرصة الدفاع الكامل عن نفسه ، وأن يحاكم أمام محكمة عامة عادلة . أما ما دون ذلك فلا يسمى عدلاً .

إن العقل العام يقتضي أن يكون عقاب المذنب عقاباً عادلاً منصفاً ، أما أن يلقى القبض على الإنسان ويوضع في الأغلال دون تهمة ومحاكمة عادلة فهذا سلوك لا يوجد في الإسلام . وقد جعل القرآن تحقق العدل والإنصاف واجباً على كل من الحكومة ودار القضاء الإسلامية .[(٢٢٦)]

(١٢) حماية الملكية :

يوضح القرآن حقاً أساسياً بشأن الملكية الخاصة فيقول «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» البقرة ١٨٨ . ولو تدارسنا القرآن والحديث والفقه الإسلامي لعلمنا علم اليقين أن أكل أموال الآخرين باطل أياً كان أسلوبه وطريقته ، فلا حق لأي فرد أو حكومة أن يتخطى القانون ويستولي على ملكية أحد أو ينال منها أكثر من تلك الحالات التي أوضحها الإسلام نفسه .

(١٣) صون الكرامة :

من بين حقوق الإنسان الأساسية في الإسلام أن تصان عزته وكرامته وماء وجهه وهذا الحق مفصل في سورة الحجرات مثل :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾
﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾
﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾

(سورة الحجرات ـ آية ١١ ـ ١٢)

يعني منع كافة الأشكال التي من شأنها المساس بعزة الإنسان وكرامته ، فلا تجوز السخرية من أحد حاضراً كان أم غائباً ، ولا يجوز إطلاق ما قبح من ألفاظ عليه لان حق الإنسان القانوني ألا تتعرض كرامته وحياؤه للخدش والتجريح من قبل أي إنسان ، وألا يتعدى عليه أحد باليد أو اللسان .

(١٤) حماية الحياة الخاصة :

ومن حقوق الإنسان الأساسية في الإسلام أيضاً الحفاظ على حياته الخاصة ، وتوضح سورة النور هذا الأمر «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا» آية ٢٧ . وتقول سورة الحجرات «ولا تجسسوا» آية ١٢ . كما تبين لنا الأحاديث النبوية الشريفة ألا حق لأحد في أن ينظر من منزله ليرى عورة منازل الآخرين . فلكل إنسان الحق القانوني أن يكون منزله في مأمن عن عيون الآخرين وشغبهم وضوضائهم ودخولهم إياه ، وأن يجلس أهل بيته في مسكنهم دون حجاب أو تحرج بل وأكثر من ذلك ليس لأحد أن ينظر في رسالة الآخر ليقرأ ما بها .

فالإسلام يحمي حياة الإنسان الخاصة ويحفظها ويمنع تفحص البيوت وتدقيق النظر فيها منعاً باتاً ويوصينا ألا نقرأ رسائل الآخرين إلا إذا علم من مصدر وثيق أن هذا الشخص يزاول عملاً مريباً خطيراً ، وما عدا ذلك فالشريعة الإسلامية لا تبيح التجسس على أحد مهما كان .

(١٥) **حق الاحتجاج على الظلم :**

يعطي الإسلام للإنسان حقه الكامل في الاحتجاج على الظلم «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم» النساء ١٤٨ . بمعنى أن المظلوم له الحق في الاعتراض والاحتجاج على من ظلمه .

(١٦) **حرية التعبير عن الرأي :**

وهناك مبدأ يقال له بالمصطلح الحديث حرية التعبير (Freedom of Expression) بينه وبين القرآن بألفاظ أخرى حين يقول إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس حقاً من حقوق الإنسان فحسب بل هو فرض عليه وواجب . وطبقاً لما ورد في القرآن والحديث نجد فرضاً على الإنسان أن يأمر الناس بالخير ويساعدهم عليه ، وينهاهم عن الشر ويكفهم عنه . فإن رأى شراً أو منكراً فليس عليه أن يحتج ضده فقط بل عليه كذلك أن يحاول منعه أو إزالته ، أما التزام الصمت إزاءه وعدم محاولة وقفه وكفه فهو ذنب يقترفه الإنسان ويكتب عليه لأن واجب المسلمين تطهير المجتمع الإسلامي . ويعد منعهم من القيام بهذا الواجب ظلماً كبيراً لا مثيل له .

إن من يمنع إنساناً عن إظهار الحق ومساندته فهو بفعله هذا لا يسلبه حقاً أساسياً فحسب ، بل يعوقه أيضاً عن أداء فرض من الفروض ولا بد من حصول الإنسان ـ في أي ظرف ـ على هذا الحق من أجل صحة المجتمع وسلامته .

وقد ذكر القرآن أسباب انحطاط بني إسرائيل ، وكان من بينها أنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» المائدة ٧٩ ، يعني أن لو أصبح شعب من الشعوب لا يعترض أو يحتج على منكر أو شر فسوف تستشري هذه المنكرات تدريجياً في سداة المجتمع ولحمته ، ويصبح كالثمار المتعفنة المعطوبة التي تلقى بعد قطافها ، ولا يبقى بين هذا الشعب وبين استحقاقه عذاب الله أدنى حائل .

(١٧) **حق حرية الاعتقاد :**

أعطى الإسلام الإنسانية مبدأ «لا إكراه في الدين» البقرة ٢٥٦ ، وأعطى في ظله كل فرد الحرية في أن يختار من الكفر أو الإيمان ما يشاء . أما استخدام

القوة في الإسلام فهو لأمرين ضروريين أولهما جهاد الأعداء من أجل حماية استقلال وكيان الدولة الإسلامية ، وثانيهما حماية الأمن والنظام وتنفيذ الإجراءات القانونية العادلة لمنع الجرائم والفتن .

لقد كان حق حرية الاعتقاد حقاً غالياً ثميناً ظل المسلمون في مكة ثلاثة عشر عاماً يكافحون من أجله ويتحملون المشاق في سبيله حتى استقر في النهاية . وكما حصل المسلمون عليه اعترفوا به كاملاً متكاملاً بالنسبة للآخرين . والتاريخ الإسلامي كله يخلو من فرض المسلمين دينهم بالقوة والإكراه على الرعايا غير المسلمين أو اضطهادهم شعباً لينطق بكلمة أو حرف .

(١٨) الحماية من الاضطهاد الديني :

لا يسمح الإسلام باضطهاد الجماعات الدينية بعضها الآخر ، أو أن تنقص كل منها من قدر أئمة الآخرين وزعمائهم أو تلحق بهم الإهانة والسباب وما إليها ، فالقرآن يعلمنا احترام معتقدات الآخرين الدينية واحترام أئمتهم وزعمائهم «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله» . الأنعام ١٠٨ .

فالجدل المهذب بين مختلف المذاهب والنقد السليم واظهار مواطن الاختلاف كلها أمور تندرج تحت حرية التعبير ، أما الإهانة والاضطهاد والإكراه فهي أمور ممنوعة غير مشروعة .

(١٩) حق حرية التجمع :

إن حرية الاجتماع هي النتيجة المنطقية لحرية التعبير . وبما أن القرآن قد أوضح كثيراً أن اختلاف الآراء حقيقة ملازمة للحياة الإنسانية ، فأنى له ألا يعترف بحركة صاحب الرأي بين الناس ؟ فمن الممكن أن تظهر بين الأمة التي تجتمع على مبدأ واحد ونظرية واحدة مدارس مختلفة يتقارب دعاتها على أي حال فيما بينهم . «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» آل عمران ١٠٤ . وحيث أن هناك فرق بين التصورات التفصيلية لمفاهيم «الخير» و «المعروف» و «المنكر» ، فإن المتحدين على نظرية واحدة في الأمة قد تتشكل بينهم ـ على هذا الأساس ـ مدارس فكرية مختلفة ، وجماعات

وأحزاب متعددة ومن ثم تظهر جماعات تختلف فيما بينها باختلاف آرائها في النظريات السياسية والقانون والفقه وما إلى ذلك .

فالسؤال إذن هل من حق الجماعات التي تختلف فيما بينها في وجهات النظر أن تنال حرية الإجتماع في ظل الدستور الإسلامي وميثاق الإسلام الخاص بحقوق الإنسان ؟ ، لقد ظهر هذا السؤال أمام سيدنا علي رضي الله عنه بظهور الخوارج ، واعترف لهم بحقهم في حرية الإجتماع وكان فحوى كلامه لهم أنكم أحرار طالما لم تجردوا سيوفكم لتفرضوا نظريتكم على الآخرين كرهاً .

(٢٠) المسؤولية الفردية :

والإنسان في الإسلام لا يسأل إلا عن أفعاله وجرائمه فقط ، ولا يجوز القبض عليه بسبب جرائم اقترفها الآخرون «ولا تزر وازرة وزر أخرى» الأنعام ١٦٤ . فليس في القانون الإسلامي أن يترك المجرم ويقبض على البريء .

(٢١) لا عقاب بدون جريمة :

إن كل إنسان يعيش في ظل الإسلام في مأمن من أن يتخذ ضده أي إجراء بدون تحقيق ، وقد وضع القرآن في هذا عدة قواعد تقتضي بضرورة إجراء تحقيق عادل فيما ينسب لأي إنسان من اتهامات من أجل ألا تتخذ إجراءات ضد فرد أو جماعة دون الوقوف على حقيقتها «اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم» الحجرات ١٢ [٢٢٧] .

هذا هو مجمل الحقوق التي أعطاها الإسلام للناس ، وتصوره الذي بينه للإنسان منذ بداية الحياة الإنسانية تصور واضح كامل .

والأمر الذي تجدر الإشارة إليه أن إعلان حقوق الإنسان العالمي قد صدر إلى العالم دون أن يحظى بأية قوة أو سلطة منفذة ، فلم يكن أكثر من نموذج ومعيار لم يتبعه أي شعب من الشعوب أو يعمل وفق نصوصه ، لأنه ليس معاهدة فعالة تعطي الحقوق لسائر الشعوب .

أما المسلمون فهم يتبعون قواعد ومبادئ كتاب الله وسنة رسوله حيث أوضح

الله ورسوله فيهما كافة الحقوق الأساسية إيضاحاً تاماً . وعلى الدولة التي تريد أن تصبح دولة إسلامية أن تعطي المسلمين وغير المسلمين هذه الحقوق دون تحيز أو مجاملة ، بلا حاجة إلى معاهدة تنص على أن نعطي الشعب الفلاني هذا الحق أو ذلك إذا أعطانا إياه لأن المسلمين يمنحون عدوهم وصديقهم هذه الحقوق بالتساوي والقسطاس المستقيم» (٢٢٨) .

إن «الشورى في الأمر» .. لتحقيق الحرية في أسمى صورها لضمان انتفاء الخوف مما سوى الله ، و «التعاون في الحياة» .. لتحقيق العدل المالي لضمان العيش الكريم .. و «الخير في الأرض» .. رسالة هذه الأمة ... هي المهام الملقاة على عاتق المسلم في القرن الخامس عشر الهجري .

ذلك في نطاق بناء الروح المسيّر لها في واقع الحياة ، وان القتال في سبيل تحرير المستضعفين هو أحد مهام إقرار العدل في الأرض وهذا القتال هو أحد معالم الجهاد «ثورة المسلمين الدائمة» :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٢٢٩)

- تحريرهم من «الظلم السياسي» بجعل الأمر شورى .. وأن لا ينال عهد الله الظالمين .
- وتحرير ساحة البشرية من «الظلم الاجتماعي» : بالقضاء على الفرقة والانحلال وتثبيت واجبات الإنسان وحقوقه التي تليق به في حالتي الواجب والحق بصفته كائناً مكرماً .
- وتحريرهم من الطغيان المالي بتحقيق العدل في المال في توزيع الثروة واكتسابها لإقامة مجتمع الإنسان القائم على التكامل والتكافل والرعاية الشاملة .
- وتحرير مركز «قيادة البشرية الفكري» المتمثل في استلام المسلم «لزمام القيادة العالمية» ، تحريره من الأفكار الخاطئة وكل ما يعيق التقدم الصالح لخير الإنسان في دنياه وأخراه .

تحرير العلم والثقافة ومناهج التعليم والفكر من الأهواء :

إن النظرة العلمية القائمة على منطق الحقيقة والبرهان المقنع قد أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك ، إلا عند أولئك البسطاء والسذج من ذوي النظرة السطحية غير المتعمقة ولا المتفحصة والتي تتقبل دائماً زخرف القول ، أثبتت أن نظام التعليم كالكائن الحي له روح تسيره إلى غاياتها وتلوّنه بمعتقداتها وهي ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم وغايتهم من العلم ، غايتهم من دراسة الكون ووجهة نظرهم إلى الحياة ومظهر لمسلكهم وأخلاقهم وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحاً قائماً بذاته ، وذلك في جميع العلوم في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية وعلمي الاقتصاد والسياسة وحتى العلوم البحتة أيضاً كالرياضيات والفيزياء ، ويتجلى ذلك في محاولات الماركسية التمويه في تفسير قوانينها التي تصفها بالعلمية لصالح الفكرة الماركسية وليس في وسع كل شخص أن يميّز بين الصحيح والسقيم من نتائج تلك المناهج .. وانما يتيسر ذلك لرجل أوتي من «قوة الاجتهاد» و «ملكة النقد» و «عمق العلم» و «سعة المعلومات» ما يستطيع به أن يميّز الجزء النافع من الضار ، فيكون عاملاً بقول علمائنا الأقدمين «خذ الثمر وخل العود للنار» .

لذلك فإن نظم التعليم المنقولة من الغرب أو الشرق قد خلقت المسخ التعليمي في بلاد المسلمين وأوجدت الشخصية التي أخلدت إلى الأرض وتمرغت في مستنقع الدمار الأخلاقي المتفشي في مجتمعات الجاهلية المعاصرة ولم يعد للشخصية المسماة مجرد تسمية بأنها إسلامية أي قدر من تمثيل الشخصية الإسلامية بحق .

إن الشخصية الإسلامية يجب أن يصيغها منهج تعليمي إسلامي تكون نتيجته الحتمية تلك الشخصية الإنسانية المتوازنة في أرقى المستويات الممكنة لخير أمة أخرجت للناس .

إن منهج التعليم المنقول من الغرب أو الشرق سيفضي بشباب المسلمين المتعلمين حتماً إلى ما حدثنا عنه المفكر الإسلامي الكبير محمد أسد في كتابه القيّم «الإسلام في مفترق الطرق»(٢٣٠) إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الحضارة الالهية الخالصة التي جاء بها الإسلام وليس ثمة من ريب

في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين «المتنورين الذين نشأوا على أسس غربية !!» ....

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية ، لا علاقة له بالدولة والحكم والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ونظرية فصل الدين عن الدولة والاعتقاد بأن الدين عائق في سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق واقامة علماء الإسلام في صف ممثلي الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة على تفكير الإنسان وروحه ومصيره في العصور المتوسطة ، وجعل «الحجاب الشرعي»* القائم على الاحتشام وعدم التبرج بزينة ، علامة تأخر وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر وعن العلاقات الجنسية البهيمية المطلقة بدعوى التحضر الزائف ، والإيمان بالقومية والوطنية الترابية والاندفاع نحو إحياء الحضارات القديمة واللغات العتيقة لا بغية العظة والعبرة واستخلاص الدرس - فهذا حق - ولكن لنفخ روح الحياة فيها وجعلها سبيلاً للعصبية الجاهلية والإيمان بأهمية الخط اللاتيني وفوائده واهمال اللغة العربية وعدم إعطائها حقها من دراسة واجادة وتفوق ، ونشر كل هذه النزعات والاتجاهات ، والبحث عن الحفريات المتعفنة لا للعظة والعبرة ولكن لخلق عصبيات تساعد على مزيد من التجزئة والانقسام وتمجيد زعامات الجاهلية التي ناوأت الفكرة الإسلامية وكنسها التاريخ في ترابه ، وما أشبهها تحتل محل الحقائق الثابتة لدى كثير من المثقفين وتعد من امارات التنور والنهضة والتقدم !!! .

كل ذلك نتيجة المناهج الموضوعة لنظام التعليم والمنقولة من الشرق والغرب دون انتقاء ولا تمييز .. تلك الأنظمة التعليمية التي أخرجت - في مواطن تطبيقها وفي بلدانها التي وجدت فيها - نتاجاً بشرياً قلقاً يرتكب الجرائم الخلقية والجنسية والاجتماعية والإنسانية ويهدم حدود الله ويتجاوزها ويبدع في اختراعها بشكل لا يكاد يتصور هوله وسفالته ، ثم بعد ذلك كله بفضي بالإنسان إلى العدمية واليأس والانتحار .

(*) هو ما عدا الوجه والكفين على أرجح الأقوال عندنا .

وحل هذه المشكلة في القرن الخامس عشر الهجري ليس إلا أن يوضع منهاج النظام التعليمي في ضوء منهج الله المتسق مع الفطرة الإنسانية والمنبثق من السنن الكونية في ضوء الحقائق القرآنية التي رسمت للإنسان معالم الطريق بصفته خليفة الله في الأرض لبنائها واعمارها وتحقيق إنسانية الإنسان في أرقى صورة ممكنة من الكمال البشري تهيئ لروح الإنسان نفحات الإيمان والتقوى والإنابة إلى الله وتقدير أمر الآخرة والمسؤولية العادلة فيها بموازين الحق والقسط لدى من يعلم السر في السموات والأرض ، كما تخلق العطف على الإنسانية كلها ، بل حتى على كل مخلوقات الأرض ، إن مثل هذا المنهج بحق يسري على اللغة والآداب والفلسفة وعلم النفس والعلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة وسائر العلوم بحيث تسيطر على كل ذلك روح الحقيقة الكونية .. حقيقة القرآن وحقيقة السنن السارية في الكون ذات المنطق الرياضي الصارم .. روحٌ تقصي استيلاء مناهج الغرب والشرق القائم على الظنون باسم العقل وعلى ما تهوى الأنفس باسم العلم : والعقل والعلم من ذلك براء .. إن علينا أن نجعل علوم الغرب والشرق – مجتمعات الجاهلية المعاصرة – التي بيدها القوى المادية والتي بسبب هذه القوى تمكن لمعالم الوثنية القاتلة لروح الإنسان من البقاء والاستمرار – أن نجعل تلك العلوم والنظريات موضع الفحص والدراسة الجريئة ، ونبقي ما هو حق وصالح منها وننفي ما هو باطل وزيف[٢٣١] .

إن هذا العمل من أهم ما يجب إنجازه في القرن الخامس عشر الهجري من روضة الأطفال إلى الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث والمجمعات العلمية وكل وسائل الإعلام والدعوة والفكر ومصادر الثقافة .

إن تحرير الإنسان المسلم من أوهام سموم ثقافة وعلوم ومناهج مجتمعات الجاهلية المعاصرة ما يضع الأغلال والإصر عن جماهيرنا المسلمة التي تساق اليوم بسوط التغريب الجاهلي كقطعان من الغنم يحكّم رقابها قادة وولاة أخرجتهم معامل الجاهلية وصنعتهم على عينها واصطفتهم للقيادة نحو التمزق والدمار باسم الحضارة والتقدم والبناء والتطوير .

وإذا كانت نقطة البدء في محاولة التحرر العلمي والثقافي والفكري قد

بدأته أجيال القرن الرابع عشر الهجري وشرعت في محاولات جيدة تضع خططها ومناهجها بشكل سليم إلا أنها ما تزال بمثابة بضعة شمعات في صحراء مترامية الأطراف من الظلام الدامس وعلى قوى الخير أن تولي هذه الناحية اهتماماً كبيراً يسد ثغراته رجال مخلصون على أعلى مستويات الفقه لسنن الله تشريعية وكونية وإنسانية وعلمية .

إن على المخلصين العمل على عزل أبنائهم عن معامل المجتمعات الجاهلية المظلمة في غير عزلة عن العلم وأساليبه المتجددة وتحويلهم عن هذه المعامل إلى مراكز إشعاع للنور الإسلامي المتكامل بصحة العقيدة والتشريع وسنن الكون وحقائق العلم وحقائق الكتاب المقروء وكتاب الكون المدروس حتى يبنى الفتى المسلم ويقوى على مواجهة أي فكر مناقض لما هو عليه .

وكما تقدم فإنه من الأهمية بمكان أن تنجز الأجيال المسلمة في القرن الخامس عشر الهجري :

(١) إقامة مراكز للبحث والترجمة والقيادة وتوحيد المناهج الفكرية والمفاهيم السياسية القائمة على العلم بحقائق ما يجري على الأرض ، وتوجيه الحركات الإسلامية وإعدادها على المستوى العالمي وإلى التنسيق فيما بينها والاستفادة من ميادين تخصصها حتى تدور كلها حول غاية واحدة وتحت مظلة واحدة وتتنوع داخل إطار مرن من وحدة الهدف وعظمة الغاية وتكون في نفس الوقت جهاز اتصال على مستوى الساحة المسلمة جمعاء جهاز يدرس ويمحص المعلومات والتطورات والقضايا الإسلامية ويقوم بدور توصيل المعلومات بعيداً عن كل أجهزة الجاهلية المشبوهة من صحافة ووكالات أنباء وأجهزة إعلام متعددة .. وحتى لا تقع «الحركات الإسلامية» و «جماهير المسلمين» في الفخاخ التي ينصبها أعداء الإسلام في أكثر من مكان وأكثر من أسلوب ، ومن ثم تؤدي القيادات والشعوب دور مصارعة الثيران الدامية ضد الخرقة الحمراء لا ضد الذي يلوّح بها بمهارة اللعبة دائماً ، وهي في غباء الثيران لا تستفيد من تجربة ولا من أهوال النكبات والنكسات في أكثر من مكان ودونما أية استفادة ، بل إنها في أحيان كثيرة تهيج عاطفياً ثم ترفع لها نفس

الخرقة وتكرر . هي نفس الأخطاء . إن من أهم شروط النجاح هو الوعي السياسي بدقائق وأسرار خطط العدو ومراقبته فكراً وتطبيقاً وتحركاً حتى تتجنب المسيرة الوقوع في «الشراك» و «الفخاخ المبثوثة» بأكثر من أسلوب وأكثر من لون . كما ركزنا على ذلك في دراستنا للسلبيات في صفحات سابقة .

(٢) تحرير الاقتصاد والمعاملات الإسلامية من غول المعاملات الربوية بإقامة بيوت أموال المسلمين سواء التأمينية العامة لمجتمع التضامن والتكافل والتكافؤ أو الاستثمارية والتجارية والإنمائية . وقد ابتدأت المصارف الإسلامية مع غروب القرن الرابع عشر محفوفة بأخطار الجهل والسلبيات والمؤامرات التي ربما أدت إلى القضاء عليها . ويجب على الأجيال المسلمة في القرن الخامس عشر الهجري في أكثر من مكان على الأرض ، تحقيق التحرر الاقتصادي جنباً إلى جنب مع تحقيق التحرر الثقافي .

وفي القرن الخامس عشر الهجري ستقيم الأجيال المسلمة :

(١) الاقتصاد العالمي الجديد المتحرر من الربا وأساليب الإستغلال والجشع والاحتكار وسرطان طواغيت المال .

(٢) ستقيم الأجيال المسلمة مراكز الإعلام والدعوة والفكر ومراكز التخطيط الفكري والبحث العلمي التي تقوم على الحقائق وبناء إنسانية الإنسان حيث تقوم أصفى علائق الاخاء والمودة والحب والعطف والرحمة وأعلى درجات الإحسان في المجتمع البشري الجديد .

(٣) وستقيم الأجيال المسلمة المدارس الجديدة من محاضن الأطفال إلى الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث والمجمعات العلمية على أسس من مناهج قائمة على العلم وحقائق القرآن .

(٤) وستقيم الأجيال المسلمة المراكز العليا للاجتهاد والتجديد المهيئة للعقول المسلمة الغوص في أسرار آيات الله مقروءة – القرآن – ومصنوعة – الكون – بقوانينه المسخرة للإنسان فهيَ للعقل المسلم والانطلاق في الآفاق والأنفس بعيداً عن ضيق الأفق ومحدودية الفكر والرأي .

(٥) إعداد القوة والأسباب لدخول الأمة إلى الدورة الحضارية الجديدة التي تتسلم بها الأمة الإسلامية زمام القيادة العالمية .

وهنا نؤكد على الحقائق التالية في سمات ومعالم أخطر برنامج للتحويل من الضعف إلى القوة ومن التخلف إلى الدورة الحضارية ، إذ يجب أن نعي أن امتلاك وسائل البناء والقوة التي تصنع وتبدع ، وان خلق شروط الحضارة لا استيراد منتجاتها وخلق سوق لها ، وان القيام بحشد طاقات الأمة نحو بناء «وسائل القوة» ، وامتلاك «أسباب القيادة العالمية» كل أولئك هو الهدف المعبّر عن ضمير الأمة في القرن الخامس عشر الهجري .

وان الحقيقة لترشد وترسم أن الحضارة هي التي «تصنع منتجاتها» (من الابرة إلى الصاروخ) ولكن في بلداننا الإسلامية يخيّل إلى القائمين بالمسؤولية أن منتجات الحضارة هي التي تصنع الحضارة ، ولهذا فإن مظاهر الحضارة في البلاد الإسلامية ليست أكثر من سوق منتجات حضارية لو كان هؤلاء قد إعتمدوا أقل منهج نقدي ازاء ما استعصى عليهم حلّه من مشاكل لاتضح لهم لامعقولية برامجهم الاقتصادية فيما أسموه : التنمية والتقدم . وذلك يرجع إلى نقص في الأفكار العلمية العملية ومناهجها المنبثقة عنها .

إن من مهام علماء هذه الأمة (الذين أخرجوا من ديارهم ووجدوا مناخهم الأمني والعلمي في بلاد الآخرين أو الذين بقوا في ديارهم وعُطِلوا عن العمل والانتاج والابداع) صياغة منهج علمي مفصل شامل للسير الجاد في إخراج حضارة البشرية الجديدة المنتظرة إلى واقع الناس .

ويوم يتناسق الفهم «للسنن الكونية» و «التعاليم المنزّلة» ويسير على هدي العلم والوحي بفهم عميق وعقل مستنير ستشرق الشمس ثانية ساطعة على هذا العالم .

وللإنسان المسلم الجديد في القرن الخامس عشر الهجري الذي يجب أن يكون مؤهلاً لقيادة العالم بالقرآن ، بعبادة التحرير (لا إله إلا الله) وبنموذجه الحي «رحمة الله للعالمين (محمد رسول الله) .... تقول الحقيقة :

لا تكرر أخطاء القرون ... واستفد من عظات التاريخ ودروسه ... واعمل بمنطق الحقائق لا الأوهام ... ابتدئ الخطوة الصحيحة تكن نتائجها في مثل صحة مقدماتها ... من أجل جيل مسلم قادم ، استخلص دروس الأجيال السالفة ، واعمل بما علمت وعندما تبدأ قافلتك بالسير في الصراط المستقيم ستلحق بك نفوس أيقظها نهار الحقيقة لا الزيف ... وليرتفع صوتك في الغدو والآصال معلناً الحقائق معرضاً عن أفكار التيه ... كما ارتفعت أصوات الأنبياء .. قديماً .. عندما كانوا يرتّلون أسفاراً للخروج من الظلمات إلى النور .. ولتشدو مع مفكرنا الإسلامي الكبير «مالك بن نبي» الذي كانت أفكاره القائمة على العلم حداءاً متصلاً ودائماً في مسامع المسلم ليستأنف السير .. وفي أفق الجهاد والعمل المتواصل ... ليرتفع نشيدك الطروب ، [٢٣٢] كما ارتفع نشيد الأنبياء قديماً عندما كانوا يغنون أسحاراً أخرى في الساعات الملائمة التي تولّد الحضارات ... ولتدوي أغنيتك أقوى من الجوقة الصاخبة التي يعلو ضجيجها هناك ... فها هم قد أخذوا الآن ينصبون بباب المدينة التي بدأت تستعيد يقظتها ـ سرادق سوق الملاهي مع مسلياتها لتلهية واحتجاز هؤلاء القادمين صوب خطاك ...

لقد أقاموا الجحوش والمنصات من أجل المشعبذين والبهلوانات حتى يغطي عجيجهم على نبرات حدائك ...

ولقد أوقدوا المصابيح الخادعة حتى يحجبوا بها النهار المقبل ، ويلفوا شبحك بالقتام في السهل حيث تسير .

لقد زيّنوا «الوثن» لكي يحقروا «الفكرة» !! ولكن «الكوكب المثالي» يواصل سيره الذي لا ينثني .

وهو لا محالة سيضيء قريباً انتصار الفكرة وأفول الأوثان . كما تم ذلك بالأمس .... في «الكعبة» .

الديار المقدسة : ١٢ من ربيع الأول عام ١٣٩٧ هجرية .

ابراهيم عبد النور

مراجع وهوامش

١ – سورة البقرة آية ٣١ .
٢ – سورة يونس آية ١٠١ .
٣ – سورة الذاريات آية ٢١ .
٤ – إشارة إلى حديث رسول الله الذي جاء فيه : «فالعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .
أخرجه «الترمذي» و «ابن ماجة» و «أحمد بن حنبل» في «مسنده» جزء ٤ ص ١١٤
٥ – سورة القمر آية ٤٩ .
٦ – سورة الفرقان آية ٢ .
٧ – سورة الرحمن آية ٧ .
٨ – سورة الإسراء آية ٢٠ .
٩ – سورة فاطر آية ٤٣ .
١٠ – سورة البقرة آية ٣٨ .
١١ – سورة هود آية ١١٧ .
١٢ – سورة النساء آية ١٠٩ .
١٣ – «مالك بن نبي» في كتابه «آفاق جزائرية» ص : ١١
١٤ – سورة الأنفال آية ٦٠ .
١٥ – سورة الرحمن آية ١٠ .
١٦ – قال الصحابي «عبد الرحمن بن عوف» : «لما قدمت المدينة آخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيني وبين «سعد بن الربيع» ، فقال سعد بن الربيع : إنني من أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي وأنظر إلى زوجتي هويت فأنزل لك عنها فإذا حلّت فتزوجها . فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك لا حاجة لي في أهلك ومالك . دلوني على السوق» .
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير – جزء ٣ – كتاب الشعب ، طبع بمصر وأخرجه النسائي عن أحمد بن يحيى الوزير عن سعيد بإسناده في كتاب النكاح باب الهدية جزء ٦ ص ١٣٧ ورواه البخاري في صحيحه ٧–١١٢ في كتاب

مناقب الأنصار باب اخاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار وفي مواطن أخرى صحيحة .

١٧ – يقول الله جلت حكمته : «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»
سورة الصف الآيتان ١٠ ، ١١ .

١٨ – «أحد أحد» ردّد نشيد الإيمان هذا سيدنا بلال وهو يعذب حتى يقول كلمة الكفر .. أنظر كتب «تراجم الصحابة» وكتب «السيرة» وانظر : «سيرة ابن هشام» المجلد الأول ص ٣٣٩ و ٣٤٠ وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره تم يقول : لا والله ـ لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك مردداً نشيد الإيمان والخلود : «أحد أحد» .
ورواه الحافظ بن سيد الناس في فنون المغازي والشمائل والسير ١١٤ ، ورواه الطبراني ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد للحافظ البيهقي ٩-٢٩٣ .

١٩ – قال ابن إسحق ، وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء «مكة» فيمر بهم «رسول الله» فيقول فيما بلغني : صبراً آل ياسر موعدكم الجنة فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام .
سيرة ابن هشام المجلد الأول ص ٣٤٠ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٥٥ هـ .

٢٠ – إشارة إلى الحديث التعليمي الهادف :
«مثل المؤمنين في تعاطفهم وتضامنهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» .
رواه البخاري في صحيحه أدب ص ٢٧ ، ومسلم في صحيحه ص ٦٦ . وفي صحيح مسلم أيضاً ٤-١٩٩٩ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم من كتاب البر والصلة والآداب .

٢١ – رواه الترمذي في كتاب الفتن ص ٧٣ والإمام أحمد في مسنده ، ص ٣٩٠ و ٣٩١ جزء ٢ وفي ٣ : ٣٥٩ في أبواب الفتن ولفظه : يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر .

٢٢ – صاحبها «الأرقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي» ولم يسبقه إلى الإسلام غير ستة من الصحابة ، وكانت دار «الأرقم» مركزاً للدعوة تبث منها التعاليم الإسلامية

في التكوين الأول للجماعة ، ومكاناً تربى فيه الطلائع الإسلامية ومصدر نور وإشعاع . وكانت عند الصفا وتسمى أيضاً « دار الإسلام » .
أنظر كتب السيرة العهد المكي وكتب تراجم الصحابة ، وانظر : طبقات ابن سعد /٣ – القسم الأول ص ١٧٢ والاصابة ١–٢٦ وتاريخ الإسلام ٢–٢٧٠ وذيل المذيل ١٨ وصفوة الصفوة ١–١٧٤ .

٢٣ – كتاب « الخلافة والملك » للإمام المودودي ص ٢–١٨ نقلاً عن المكي ج ١٠ – ص ٢٦ .

٢٤ – نفس المصدر نقلاً عن الكردري ج ٢ ص ٧١ والمكي ج ٢ ص ٨٣ .

٢٥ – نفس المصدر نقلاً عن الجصاص أحكام القرآن ج ١ ص ٨١ .

٢٦ – الخلافة والملك ص ١٨٢ و ١٨٣ .

٢٧ – الخلافة والملك ص ١٨٤ نقلاً عن الطبري ج ٦ ص ١٩٠ وابن خلكان ج ٣ ص ٢٨٥ وابن كثير ج ١٠ ص ٨٤ وابن خلدون ج ٣ ص ١٩١ .

٢٨ – سورة الأحزاب آية ٢١ .

٢٩ – إشارة إلى قوله تعالى توجيهاً إلى حسم الأمور وعدم اختلاطها ولتحديدها عملياً بوضوح : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .
واقرأ إن شئت سورة الكافرون .

٣٠ – سورة الرعد آية ١١ .

٣١ – لتنقضن عرى الإسلام ... العروة القوة التي يتثبت بها الأمر – رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٤ ص ٢٣٢ ، و ج ٦ ص ٢٥١ ، والمستدرك ص ٩٣ ج ٤ ، ج ٥ ص ٢٥١ .

٣٢ – رواه الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٢٠ و ٢٢١ ج ٦ و ٥ والترمذي في سننه ص ٣٤١ وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وأخرجه نعيم في الفتن والبيهقي في الدلائل بألفاظ متقاربة قال ابن « حجر المكي » : العضوض ظلم وعسف كأنهم يعضون عضا .

٣٣ – عن « معاذ » و « أبي عبيدة بن الجراح » بلفظ :
١ – تكون النبوة فيكم ما شاء الله (المشيئة وفق سنن الله التي وضعها بالحق تمضي فيها الأسباب إلى نتائجها) أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها .
٢ – ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء .
٣ – ثم يكون ملكاً عضوضاً فيكون ما شاء الله ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها .
٤ – ثم ملكاً جبرية .
٥ – ثم خلافة على منهاج النبوة .
منتخب « سنن العمال » ج ٢ ص ١٥٤ والذي رواه عنهم هم : أبو داود الطيالسي وسعيد بن منصور في سننه والإمام أحمد في مسنده بألفاظ متقاربة .

٣٤ – رواه أبو داود في سننه ، ملاحم – ٤ – ١٥٨ باب تداعي الأمم على الإسلام من كتاب الملاحم . والإمام أحمد في مسنده جزء ٥ ص ٢٧٨ .

٣٥ – سورة النساء آية ١٠٩ .

٣٦ – رواه الطبراني في المعجم الكبير مجمع الزوائد ص ٢٢٧ .

٣٧ – استشهد به الأستاذ الكاتب الإسلامي سميح عاطف الزين .

٣٨ – سورة البقرة آية ١١٠ .

٣٩ – سورة البقرة آية ١١٠ .

٤٠ – سورة آل عمران آية ٩٧ .

٤١ – سورة المائدة آية ٩٠ .

٤٢ – سورة الإسراء آية ٣٢ .

٤٣ – سورة النساء آية ١١٥ .

٤٤ – سورة الأنعام آية ١٥٩ .

٤٥ – الديباج المضيء « مخطوط للإمام يحيى بن حمزة شرح به نهج البلاغة » .

٤٦ – سورة الأحزاب آية ٥ .

٤٧ – ابن ماجة طلاق ١٦ و ٦٥٩ جزء ٧ و ١٠٢ المجلد الثاني من صحيح الجامع الصغير تحقيق العلامة الألباني « منشورات المكتب الإسلامي » .

٤٨ – الإرشاد « مخطوط للإمام القاسم بن محمد » .

٤٩ – إشارة إلى قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه » . سورة آل عمران آية ١٨٧ .

٥٠ – الإرشاد للإمام القاسم بن محمد .

٥١ – رواه الدارمي في سننه وإسناده صحيح .

٥٢ – نفس المصدر .

٥٣ – سورة النساء آية ٢٠ .

٥٤ – الحافظ أبو يعلى عن الشعبي عن مسروق . أنظر مختصر تفسير ابن كثير للعلامة الصابوني ص ٣٦٩ المجلد الأول وص ٢٠٨ ج ١٢ شرح نهج البلاغة للعلامة ابن أبي الحديد .

٥٥ – مناقشة نساء الرسول له . أنظر تفسير سورة التحريم جزء ٧ لابن كثير وفي صحيح البخاري ص ١٦ ج ١ قال عمر في حديث طويل : ... فصخبت عليّ امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ ! فوالله أن أزواج النبي ليراجعنه وإحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني ذلك فقلت لها : لقد خاب من فعل ذلك منهن ... ثم جمعت على ثيابي فنزلت فدخلت على « حفصة » فقلت لها : أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي اليوم حتى الليل ؟ ! قالت : نعم ! !

فقلت : خبت وخسرت .. أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكي !! ، لا تستكثري النبي ولا تراجعيه في شيء وسليني ما بدا لك .

٥٦ – الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام للإمام المحدث «عبد الرحمن السهيلي» ج ٦ ص ٤٩١ . وينظر في الإصابة .

٥٧ – البخاري ص ٩١ جزء ٧ ، والمصنف لعبد الرزاق جزء ٧ ص ٤٩٣ .

٥٨ – سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة . صحيح البخاري ص ٦٠ جزء ٤ ، يا فاطمة ألا ترضين أن تكوين سيدة نساء العالمين – وسيدة نساء هذه الأمة – وسيدة نساء المؤمنين المستدرك ص ١٥٦ جزء ٣ . وصححه الحافظ الذهبي أيضاً .

٥٩ – سورة آل عمران آية ٦١ وقد ورد في صحيح مسلم أنها لما نزلت دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي . صحيح مسلم جزء ١٥ . ومسند أحمد جزء ١ ص ١٨٥ . ورواه من عدة طرق في أجزاء وصحيح الجامع الصغير ص ٢٨ مجلد ٢ ، والترمذي التفسير – سورة ٣٣ . حديث رقم ٧ .

٦٠ – رواه البخاري في صحيحه ص ١٩٨ جزء ٢ .

٦١ – أضواء تاريخية على أسرة النبي ص ٨٥ .

٦٢ – المستدرك ١٥٦ جزء ٣ .

٦٣ – كانت إذا دخلت رحب بها وقام إليها وأخذ بيدها فقبلها وأجلسها مجلسه . المستدرك ص ١٥٤ جزء ٣ ، والتلخيص للحافظ الذهبي وصححه .

٦٤ – المستدرك ص ١٥٤ جزء ٣ .

٦٥ – صحيح مسلم ص ٣٧٦ جزء ٢ ، وصحيح البخاري ١٩١ جزء ٢ .

٦٦ – سورة الشورى آية ٤٩ .

٦٧ – إشارة إلى الآيات الكريمة التي تعد الأنبياء من ذرية ابراهيم فذكر تعالى عيسى فيمن ذكرهم من ذرية ابراهيم وهو كذلك بطبيعة الحال من ذرية آدم ومعلوم أن ذلك من جهة أمه قطعاً . قال تعالى : «وعيسى والياس كل من الصالحين» أنظر الآيات ٨٣ إلى ٨٧– الأنعام .

٦٨ – سورة التكوير آية ٨ وآية ٩ .

٦٩ – رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨ ص ٤١٥ في ترجمة نسيبه بنت كعب «أم عمارة» رضي الله عنها وكان ذلك في غزوة أحد .

٧٠ – جاء في الحديث : ما أفلح قوم ولّوا أمورهم امرأة . مسند أحمد جزء ٤ ص ١٤٠ . والترمذي وابن ماجة «منتخب العمال» ص ١٣٦ جزء ٢ بها من مسند أحمد .

٧١ – سورة التوبة آية ٧١ .

٧٢ – سورة النساء آية ١ .

٧٣ – سورة آل عمران آية ١٩٠ .
٧٤ – سورة البقرة آية ٢٢٨ .
٧٥ – سورة النساء آية ٣٤ .
٧٦ – رواه البيهقي في شعب الإيمان والطبراني في المعجم الأوسط .
٧٧ – صحيح الجامع الصغير ص ١٧١ مجلد ٢ ، وصحيح أبو داود ص ٣٣٤ .
٧٨ – أنظر كتب السيرة النبوية وترجمة خير نساء العالم – خديجة أم المؤمنين – في تراجم آل البيت عليهم السلام وصحابة الرسول رضوان الله عليهم .
٧٩ – الشريعة الإسلامية وتحديات العصر لوحيد الدين خان – دار النفائس .
٨٠ – من كتاب نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ص ١١١ . جـ/ ٢ .
٨١ – إخراج أبو نعيم في المعرفة عن عبد الله بن ربيع الأنصارى : علموا أولادكم السباحة والرماية ــ ونعم لهو المرأة المؤمنة في بيتها المغزل .
٨٢ – مسلم في صحيحه ص ٢١ جزء ١ .
٨٣ – البخاري في صحيحه ص ١٧٠ جزء ١ .
٨٤ – البخاري ــ نكاح ــ ٨٢ .
٨٥ – صحيح البخاري ص ١١٩ جزء ١ .
٨٦ – صحيح مسلم ص ٦١٠ جزء ٢ .
٨٧ – وذكر الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي في مؤلفه في «السماع» أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأساً ويسوغ الألحان لجواريه ويسمعها منهن على أوتاره وكان ذلك في زمن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه .

وقال إمام الحرمين في «النهاية» نقل الإثبات من المؤرخين : ان عبد الله بن الزبير كان له جوار عوادات وأن ابن عمر دخل عليه وإلى جنبه «عود» فقال : ما هذا يا صاحب رسول الله ، فناوله إياه فتأمله ابن عمر ، وقال هذا ميزان شامي ؟ فقال ابن الزبير : توزن به العقول . (ص ١٢٢ ، نظام الحكومة ، جزء ٢) .

ولقد أورد العلامة عبد الحي الكتاني في كتاب نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية – الجزء الثاني ص ١٢٤ أسماء المغنيات في العهد النبوي ومنهن جميلة المغنية وأرنب وزينب الأنصارية ، ولكن هؤلاء المغنيات كن يلتزمن الآداب الإسلامية لا كما تعمل الكاسيات العاريات المائلات المميلات من الخارجات على أدب الإسلام في الحشمة والخلق الرفيع .

وفي الصحيح عن عائشة أنها زفّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما كان معكم لهو فان الأنصار يعجبهم اللهو» .

وقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب آداب السماع قال : حدثنا اسماعيل بن أويس ، قال حدثني أبي عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال :

مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحسان بن ثابت وهو بفناء أطمة ومعه سماطان من أصحابه وجاريته تغنيهم فانتهى إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي تقول :

هل عليّ ويحكما   إن لهوت من حرج

فتبسم رسول الله ، وقال : لا حرج . وقد ذكر القصة ابن عبد ربه في العقد الفريد ونحو هذه الرواية ما ذكره في الإصابة مما أخرجه أبو نعيم .. إلا أن فيه لم يأمرهم ولم ينههم . وأخرجه الإمام أحمد .

وكما أُلّفت كتب عدة في التحريم وهي مشهورة متداولة ، منها ما يدعي الإجماع ، فقد ألفت كذلك كتب في المقابل وفي بعضها مبالغة تدعي تكفير من لا يجيز السماع . وكأن إباحة الغناء مسألة إجماع أيضاً .

والمسألة لا تعدو أن تكون خلافية .

ومن الكتب المؤلفة في جواز الغناء بصوت أو بآلة :

١ – الرخصة في السماع والغناء ـ الإمام بن قتيبة .

٢ – في السماع للإمام أبو منصور التميمي البغدادي .

٣ – الحافظ أبو محمد بن حزم الأندلسي .

٤ – الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله العامر ، السلفي الأصبهاني .

٥ – الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، ألف كتاباً نقض فيه أقوال من قال بتحريم السماع وجرح النقالة للحديث الذي أوهم التحريم ، وذكر من جرحهم من الحفاظ واستدل على إباحة السماع والبراع ، و «الدف» و «الأوتار» بالأحاديث الصحيحة وجعل «الدف» سنة .. وقال لا فرق بين سماع الأوتار وسماع صوت المزار والبلبل وكل طير حسن الصوت فكما أن صوت الطير مباح سماعه فكذلك الأوتار .

٦ – الكفاية والغنا في أحكام الغنا لمحمد بن عمر البستي المعروف بالدراج .

٧ – الإمتاع بأحكام السماع للإمام المؤرخ المطلع أبي الفضل كمال الدين جعفر الأدفوي ، قال عنه الحافظ الشوكاني : لم يؤلف مثله في بابه .. وقال عنه الكتاني : لم أر له نظيراً فيما ألف في المسألة ولا أعلى نقلاً وأجود بحثاً .

٨ – للشيخ أبي القاسم القشيري .

٩ – للشيخ تاج الدين الفزاري .

١٠ – للشيخ عز الدين بن عبد السلام .

١١ – للشيخ تقي الدين بن دقيق العبد .

١٢ – فرح الاسماع برخص السماع ، للأستاذ أبي المواهب التونسي .

١٣ – بوارق الالماع في تكفير من يحرم مطلق السماع . للإمام أبي الفتوح أحمد الغزالي .
(وهذه مبالغة مثل مبالغة مدعي الإجماع على التحريم) .
١٤ – إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع . للإمام الحافظ محمد الشوكاني .
١٥ – القاضي أبي عيسى عبد الرحيم .
١٦ – إيضاح الدلالات في سماع الآلات .. الأستاذ عبد الغني النابلسي .
١٧ – تشنيف الاسماع ببعض أسرار السماع .. للعلامة أبي زيد عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس .
١٨ – نزهة الاسماع في مسألة السماع ، للحافظ بن رجب الحنبلي .
١٩ – مواهب الارب ، جعفر بن ادريس الكتاني .
٢٠ – أحمد بن الحياط الزكاري الفاسي .

قال الحافظ الشوكاني : في رسالته بطلان الاجماع على تحريم مطلق السماع «روى الغناء وسماعه عن جماعة من الصحابة : «عمر» كما رواه ابن عبد البر وغيره . «وعثمان» كما نقله الماوردي وصاحب البيان وحكاه الرافعي و «عبد الرحمن بن عوف» كما رواه ابن أبي شيبة و «أبو عبيدة بن الجراح» كما أخرجه البيهقي و «صوء» كما في الصحيح و «ابن عمر» كما رواه الزبير بن بكار و «غرضفة ابن كعب» كما رواه ابن قتيبة و «خوات بن جبير» ، كما أخرجه صاحب الأغاني و «عائشة والربيع» كما في الصحيح ، أنظر نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية تأليف عبد الحي الكتاني ص ١٣٤ دار إحياء التراث العربي . بيروت – لبنان .

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجة عن قيس بن سعد بن عبادة قال : ما من شيء كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا قد رأيته إلا شيئاً واحداً أن رسول الله كان يغلس له يوم «الفطر» . وقال جابر هو «اللعب» .

وروى ابن ماجة عن عياض الأشعري أنه شهد عيداً بالأنبار فقال مالي لا أراكم تغلسون كما كان يغلس عند رسول الله . وروى الطبراني عن أم سلمة قالت : دخلت على جارية لحسان بن ثابت يوم فطر ناشرة شعرها معها دف فزجرتها فقال رسول الله دعيها يا أم سلمة فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا . ص ١٢٢ – نظام الحكومة النبوية – جزء ٢ .

روى النسائي عن السائب بن يزيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا عائشة ، تعرفين هذه ، قالت : لا يا نبي الله ، قال : هذه قينة بني فلان تحبين أن تغنيك فغنتها . وقد صححه الإمام الشوكاني . وهذا الحديث

قوي الدلالة على إباحة الغنا من الرجال والنساء وقوله قينة يدل على أن هذه كانت صنعتها العنا فإن لفظة قينة مشهورة وذلك يدل على الإباحة .
ص ١٣٦ جزء ٢ نظام الحكومة النبوية .

٨٨ – رواه البخاري في مواضيع من صحيحه ٩–٨ و ١٣–٤٥٣ و ٥١٨ ومسلم في صحيحه ٥٤٦١ ولفظه : ما أذن الله لنبي كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن أي ما استمع الله لنبي كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن .

٨٩ – رواه البخاري في صحيحه ١٣–٥٠١ .

٩٠ – المصنف للإمام عبد الرزاق الصنعاني ص ٦ جزء ١١ .

٩١ – أخرجه الإمام أحمد والبخاري في الأدب والسائي عى بريدة رفعه :
نطام الحكومة النوية المسمى التراتيب الإدارية للعلامة الكتاني ص ٤٢٥ و ٤٢٦ .

٩٢ – أخرجه مسلم عى أبي موسى رفعه نفس المصدر في رقم (٨٣) .

٩٣ – يا أنجشة رويدك رفقاً بالقوارير يعني النساء . وأنجشة كان حسن الصوت يحدو بأمهات المؤمنين في السفر . رواه البخاري في صحيحه في مواضيع من كتاب الأدب ١٠–٥٣٨–٥٥٢–٨١–٥٩٣–٥٩٤ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه أيضاً .

٩٤ – رواه الإمام البيهقي في الدلائل والإمام ابن القيم في زاد المعاد . كما في المواهب اللدنية للزرقاني ١–٤١٦ .

٩٥ – رواه البخاري في صحيحه نكاح جزء ٦٣ ، وبمعناه سنن ابن ماجة جزء ١ ص ٦١٢ و٦١٣ وجرء ٩ ص ٢٢٥ – بلفظ :
عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله : يا عائشة أما كاں معكم من لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو .

٩٦ – سورة النمل آية ٨٨ .

٩٧ – سورة سبأ آية ١٣ .

٩٨ – سورة آل عمران آية ٦٤ .

٩٩ – صحيح مسلم – الجزء ٧ ص ١٣٥ .

١٠٠ – المصنف للإمام عبد الرزاق ص ٤٦٤ جزء ٨ .

١٠١ – رأى عمر رجلاً مطأطئاً رأسه فقال : ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض . ورأى رجلاً متماوتاً فقال : لا تمت علينا ديننا أماتك الله . النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين .

١٠٢ – صحيح الترمذي جزء ٨ ص ١٣٤ – المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م .

١٠٣ – جزء ٢ ص ٣٥٨ نظام الحكومة المسمى التراتيب الإدارية للعلامة الكتاني .

١٠٤ – نفس المصدر السابق جزء ٢ ص ٣٦٠ .

١٠٥ – سورة الواقعة آية ٣٦ .

١٠٦ – سورة هود آية ٧١ .

١٠٧ – سورة النجم آية ٤٣ .

١٠٨ – ظافر القاسمي في كتابه الحياة الاجتماعية عند العرب ص ١٢٢–١٢٣ و ١٢٤ بتصرف .

١٠٩ – سورة القلم آية ٤ .

١١٠ – صحيح البخاري ص ٤٠ جزء ١ .

١١١ – صحيح البخاري ص ٤٠ جزء ٤ .

١١٢ – سورة الأنعام آية ١٤٨ .

١١٣ – سورة ابراهيم آية ٥٠ .

١١٤ – أنظر سورة مريم عليها السلام .

١١٥ – صحيح البخاري ٢١١–٢– المطبعة البهية المصرية ١٣٤٩ هـ .

١١٦ – سورة النحل آية ١١٦ .

١١٧ – صحيح الجامع الصغير مجلد ٢– ص ٢٦٣ .

١١٨ – مصنف الإمام عبد الرزاق جزء ١١ ص ٤٦٦ وأخرجه مسلم في صحيحه ص ٣٧٧ .

١١٩ – عن أبي الوليد سألت ابن عمر «الحصا الذي كان في المسجد فقال إنَّا أمطرنا ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يجيء بالحصى في ثوبه فيبسطه تحته فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاته قال ما أحسن هذا . ص ١٨٧ جـ ١١ جامع الأصول لابن الأثير .

١٢٠ – رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عويم بن ساعدة ، فقال : ما هذا الذي أثنى الله عليكم ؟ فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هو هذا . انتهى من تفسير ابن كثير ٣ : ٤٥٤ . ورواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣ : ٤٢٢ في (مسند عويم بن ساعدة رضي الله تعالى عنه) : «عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : ان الله تبارك وتعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لناجيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا» .

١٢١ – وهو أول من سن قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على ذلك ، وكتب به بالبلدان وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة . (طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٨١) .

حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . قال ابن شهاب فتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأمر على ذلك ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدرا من خلافة عمر رضي الله عنهما .

وعن ابن شهاب عن عروة بن الأيد عن عبد الرحمن بن عيد القاري أنه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أفضل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر نعم البدعة هذه ، والتي ينامون عنها أفضل عن التي يقومون – يريد آخر الليل – وكان الناس يقومون أوله .

(البخاري ج ٣ ص ٥٨) طبعة الشعب .

١٢٢ – سورة البقرة آية ١٧٢ .

١٢٣ – سورة الأعراف آية ٣٢ .

١٢٤ – سورة الأعراف آية ٣١ .

١٢٥ – سورة الأنبياء آية ٨٠ .

١٢٦ – سورة الواقعة آية ٨٩ .

١٢٧ – سورة النمل آية ٦٠ .

١٢٨ – سورة الحج آية ٥ .

١٢٩ – سورة سبأ آية ١٠ .

١٣٠ – سورة المزمل آية ٤ .

١٣١ – سورة الحج آية ٢٤ .

١٣٢ – سورة الأنفال آية ٦٠ .

١٣٣ – سورة النساء آية ١٣٤ .

١٣٤ – سورة البقرة آية ٢٠١ .

١٣٥ – سورة العصر .

١٣٦ – سورة آل عمران آية ١٠٤ .

١٣٧ – سورة يونس آية ١٠١ .

١٣٨ – سورة البقرة آية ٢٩ .

١٣٩ – سورة الجاثية آية ١٣ .

١٤٠ – سورة ابراهيم آية ٣٣ .

١٤١ – سورة النمل آية ١٢٨ .
١٤٢ – سورة الشورى آية ٣٨ .
١٤٣ – سورة الحشر آية ٧ .
١٤٤ – سورة آل عمران آية ١٠٤ .
١٤٥ – سورة آل عمران آية ١٠٤ .
١٤٦ – سورة المائدة آية ٢ .
١٤٧ – صحيح مسلم ص ٧٠ ج ٢– مطبعة عيسى البابي وشركاه . وفي باب تأمير الامام الأمراء على البعوث من كتاب الجهاد .
١٤٨ – صحيح الجامع الصغير تحقيق الألباني مجلد ٢ ص ٣٨٥ ، وسنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٠٠٨ ، وصحيح البخاري – كتاب الاعتصام ، ورواه النسائي .
١٤٩ – رواه البزار في مسنده كما في الجامع الصغير للسيوطي بشرح فتح القدير للمنوي ج ٢ ص ٥٤٤ .
١٥٠ – صحيح مسلم ج ٢ ص ٤٦٢ وفي ٤ : ٢٠٥٥ في باب هلك المتنطعون من كتاب العلم .
١٥١ – إشارة إلى بيان المدينة الدستوري الذي أعلن قيام «الأمة» من تجمعات متعددة ، بينها المجتمع المسلم الذي يضم فرعيه العظيمين المهاجرين والأنصار ، وكل من هذين الفرعين يقوم على تجمعات أصغر وفرع المنافقين من الأنصار والمجتمع اليهودي الذي كان يسكن المدينة .

١ – بأنهم أمة واحدة من دون الناس ثم عدّد البيان أقسام هذا المجتمع الذي يستظل بمظلة عامة هي نظام الإسلام وقيادة الرسول .

٢ – مجتمع المؤمنين وواجب طوائفهم :

المهاجرون ، بنو عوف ، بنو ساعدة ، بنو الحارث ، بنو جشم ، بنو النجار ، بنو عمر بن عوف ، بنو النبيت .

٣ – ثم أعلن البيان واجبات هذا المجتمع الإيماني ، وواجب المجتمع اليهودي داخل هذه الأمة الموحّدة مبيّناً تفاصيل ما لهذا المجتمع وما عليه ، مفصلاً ذلك وبهذا الإعلان كفلت الحريات للجميع ولم يدع البيان إلى إنهاء هذا التعدد وإنما أقام الواجبات على أساسه لتشملهم جميعاً حتى مع مخالفيهم في العقيدة .

محمد خاتم النبيين – الطبعة الأولى – ١٩٧٣ م – ج ٢– ص ٢٩ إلى ٣٤ .

وقد ذكر بيان المدينة في كتب السيرة والتاريخ والتراجم .

١٥٢ – إشارة إلى قوله تعالى : «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» . سورة الأنبياء آية ٩٢ .
١٥٣ – الخلافة والملك للمودودي ص ١٤٨ عن السرخسي في المبسوط ج ١٠ ص ١٢٥ .

١٥٤ — من دلك أنهم لقوا في الطريق الآمن مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني ، فقالوا : احفظوا ذمة نبيكم . وذلك حق ولكنهم لقوا عبد الله بن خباب وفي عنقه مصحف ومعه امرأته وهي حامل فقالوا : «إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك ثم قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه» .

وانظر الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٥٧ و ٥٨ ، الناشر مكتبة المعارف ، بيروت .

١٥٥ — من حديث طويل :

عبد الرحمن والضحاك الهمداني ؟ أن أبا سعيد الخدري قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقسم قسماً ، أتاه ذو الخويصرة .. وهو رجل من بني تميم .. فقال : يا رسول الله ! اعدل . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ويلك ! ومن يعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل» . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «دعه .. فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم.. وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم .. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» . صحيح مسلم — جزء ٢ — ص ٧٤٤ — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

١٥٦ — تقدم ذكر السورة ورقم الآية .

١٥٧ — سورة النساء آية ١٧١ .

١٥٨ — تقدم ذكر الآية والسورة .

١٥٩ — تقدم ذكر الآية والسورة .

١٦٠ — سورة الزخرف آية ٨٤ .

١٦١ — تقدم ذكر السورة والآية .

١٦٢ — تقدم ذكر السورة والآية .

١٦٣ — إشارة إلى قوله تعالى : «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً» .

سورة الكهف آية ١٠٣ .

١٦٤ — سورة الحجرات آية ١٠ .

١٦٥ — سورة المائدة آية ٨ .

١٦٦ — سورة يوسف آية ٢١ .

١٦٧ — سورة النمل آية ٢٤ .

١٦٨ — صحيح مسلم ص ٦ جـ ١ .

١٦٩ — رواه الطبراني في الكبير من حديث «العَرض» عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ، وقد حاول بعض المحدثين تضعيفه ولكنه له شواهد تؤيد صحته ، وهو موافق

لحقائق القرآن وسنن التاريخ عليه إشراق النبوة وصدق الحقيقة . وقد صححه المحققون من علماء آل البيت قرناء الكتاب .

١٧٠ – سورة النحل آية ٤٤ .

١٧١ – صحيح مسلم جـ ٢ ص ٤٦٢ ، جـ ٤ : ٢٠٥٤ في باب اتباع سنن اليهود والنصارى من كتاب «العلم» ، رواه البخاري في صحيحه في باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لتتبعن سنن من قبلكم – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

١٧٢ – كتاب الموضوعات الكبرى للعلامة علي القاري ص ١٤ .. كما في تذكرة الحفاظ للذهبي جزء ١ ص ٢٧٤ – في ترجمة أبي اسحاق الفزاري وتهذيب التهذيب لابن حجر وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ .

١٧٣ – سورة الجن آية ١ .

١٧٤ – رواه الإمام أبو طالب في أماليه والحافظ الترمذي في جامعه وقد رواه أبو طالب في أماليه بسند أحمد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بنحوه ، ورواه أبو السعادات «ابن الأثير» في جامع الأصول من طريق ثالثة من حديث عمر بن الخطاب قال الإمام محمد بن ابراهيم الوزير : لم يزل العلماء يتداولونه فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول .

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ (أنظر آي الذكر الحكيم في أكثر من آية) .

١٧٨ – سورة البقرة آية ١١١ .

١٧٩ – أنظر مادة «فقه – وعلم – وعقل» في معجم ألفاظ القرآن الكريم .

١٨٠ – سورة فاطر آية ٢٨ .

١٨١ – سورة طه آية ١١٤ .

١٨٢ – سورة الملك الآيتان ٣ و ٤ .

١٨٣ – سورة اقرأ آية ١ .

١٨٤ – سورة البقرة آية ١٦٤ .

١٨٥ – سورة الأنبياء آية ٣٠ .

١٨٦ – سورة فصلت آية ١١٠ .

١٨٧ – سورة السجدة آية ٣٢ .

١٨٨ – سورة النمل آية ٨٨ .

١٨٩ – سورة الرعد آية ١١ .

١٩٠ – لم أجد فيما رجعت له من كتب الحديث . وفي كتاب نهج البلاغة قسم حكم أمير المؤمنين روى هذا له عليه السلام .

١٩١ – سورة فصلت آية ٥٣ .

١٩٢ – الإسلام في مفترق الطرق ، للدكتور أحمد عروة نقله عن الفرنسية د. عثمان أمين – طبع دار الشروق سنة ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م ص ٥٦ إلى ٦١ .
١٩٣ – سورة الإسراء آية ٣٦ .
١٩٤ – سورة عبس آيتي ٢٤ ، ٣١ .
١٩٥ – سورة الطارق آية ٥ .
١٩٦ – سورة الأعراف آية ١٨٥ ، وانظر سورة يونس ١٠١ ، قاف ٦ .
١٩٧ – سورة غافر آية ٨٢ .
١٩٨ – سورة الغاشية آية ١٧ .
١٩٩ – سورة المائدة آية ٧٥ . وانظر سورة الأنعام آيتي ٤٦ ، ٦٥ .
٢٠٠ – سورة الاسراء آية ٢٠ .
٢٠١ – سورة الروم آية ٥٠ .
٢٠٢ – سورة الانعام آية ٩٩ .
٢٠٣ – سورة العنكبوت آية ٢٠ .
٢٠٤ – سورة الانفال آية ٢١ وأنظر . سورة البقرة آيتي ١٧١ ، ١٨١ ، سورة الجن آية ١ وآية ٢٧ ، سورة المائدة آية ٨٣ ، سورة القصص آيتي ٥٥ ، ٧١ ، سورة فاطر آية ١٤ ، سورة فصلت آيتي ٤ ، ٢٦ ، سورة الملك آية ١٠ ، سورة مريم آية ٤٢ ، سورة الأنبياء آية ٤٥ ، سورة الأنعام آيتي ٢٥ ، ٣٦ ، سورة الاعراف آية ١٠٠ ، سورة يونس آية ٦٧ ، سورة الفرقان آية ٤٤ ، سورة السجدة آية ٢٦ ، سورة الشعراء آية ٧٢ ، سورة ياسين آية ٢٧ ، سورة الانفال آية ٢٣ ، سورة غافر آية ٢٢ ، سورة الزمر آية ١٨ ، سورة الحج آية ٧٣ ، سورة الكهف آية ١٠١ .
٢٠٥ – سورة الانعام آية ١٠٤ ، وانظر : سورة القصص آية ٧٢ ، سورة الذاريات آية ٢١ ، سورة الاعراف آية ١٧٩ ، سورة الحج آية ٤٦ ، سورة الزخرف آية ٥١ ، سورة الطور آية ١٥ ، سورة البقرة آية ١٧ ، سورة يونس آية ٤٣ ، سورة السجدة آية ٢٧ ، سورة ياسين آية ٩ ، سورة الصافات آية ١٧٥ ، سورة يوسف آية ١٠٨ ، سورة القيامة آيتي ١٤ ، ١٥ ، سورة النمل آية ١٣ ، سورة العنكبوت آية ٣٨ ، سورة الملك آيتي ٣ ، ٤ ، سورة ق آية ٨ ، سورة الجاثية آية ٢٣ ، سورة النور آية ٤٤ ، سورة الحشر آية ٣ .
٢٠٦ – سورة الإنسان آية ٢ .
٢٠٧ – سورة محمد آية ٢٣ ، وانظر : سورة النحل آية ٧٨ ، سورة الاعراف آية ١٧٩ ، سورة المؤمنون آية ٧٨ ، سورة الحج آية ٤٦ .
٢٠٨ – سورة البقرة آية ١٧١ ، آية ٢٤٢ ، وانظر : سورة العنكبوت آيتي ٢٢ ، ٤٣ ، سورة يوسف آية ٤٢ ، سورة الحج آية ٤٦ .

٢٠٩ – سورة الانعام آية ٥٠ ، وانظر : سورة الروم آية ٨ . سورة سبأ آية ٤٦ ، سورة آل عمران آية ١٩١ ، سورة الاعراف آية ١٧٦ ، سورة الحشر آية ٢١ .

٢١٠ – سورة النساء آية ٧٨ ، وانظر : سورة هود آية ٩١ ، سورة الانعام آية ٦٥ ، سورة طه آية ٢٨ ، سورة الاعراف آية ١٧٩ ، سورة الانفال آية ٦٥ ، سورة التوبة آيتي ٨٧ ، ١٢٢ ، سورة المنافقون آية ٧ .

٢١١ – سورة البقرة آية ١١١ ، وانظر : سورة المؤمنون آية ١١٧ . سورة النساء آية ١٧٤ ، سورة النمل آية ٦٤ . ، سورة القصص آيتي ٣٢ ، ٧٥ ، سورة الانعام آيتي ٨٣ ، ١٤٩ ، سورة النحل آية ١١١ ، سورة العنكبوت آية ٤٦ ، سورة الحج آية ٨ .

٢١٢ – سورة البقرة آية ١٢٠ .

٢١٣ – سورة آل عمران .

٢١٤ – سورة النساء آية ١٥٧ .

٢١٥ – سورة الاحقاف آية ٢٣ .

٢١٦ – أنظر عن هذه النقطة بالتفصيل كتاب (التفسير الإسلامي للتاريخ) للدكتور/ عماد الدين خليل ، الفصل الثالث (دار العلم للملايين – بيروت/١٩٧٥م) .

٢١٧ – تقدم ذكر المرجع .

٢١٨ – سورة التوبة آية ٣٣ .

٢١٩ – المستدرك ص ١٥٥ جزء ٣ – بلفظ حتى يبلغ أمر الإسلام حيث بلغ الليل . ويلفظ : ليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل والنهار ص ٤٣٠ – جزء ٤ .

٢٢٠ – أبو داود – ملاحم ١٦ ، الترمذي فتن ٩ ، الترمذي مناقب ٣٧ ، ابن حنبل جـ ٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، الدارمي أشربه ٨ .

٢٢١ – تقدم ذكر المصدر .

٢٢٢ – في جلسة التصويت على إعلان حقوق الإنسان وافقت عليه ٤٨ دولة وامتنعت ثماني دول عن التصويت .

٢٢٣ – أنظر مثلاً «وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» . سورة الذاريات آية ١٩ ، وكذلك «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» . سورة الإنسان آية ٨ .

٢٢٤ – من بين الاسباب التي على أساسها أقر القرآن ببطلان النظام الفرعوني «أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم» سورة القصص آية ٤ أي أن الإسلام لا يبيح تقسيم أفراد المجتمع الواحد إلى طبقات عليا وأخرى دنيا أو طبقة حكام وطبقة محكومين أو تفرقة بينهم في المعاملة أو الحقوق والواجبات على أساس جاهل هو : مواطنون وأجانب .

٢٢٥ – أمامنا في ذلك آيات صريحة مثل «ولا تطيعوا أمر المسرفين» سورة الشعراء آية ١٥ –

«ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» سورة الكهف آية ٢٨ - «واجتنبوا الطاغوت» سورة النحل آية ٣٦ «وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد» سورة هود آية ٥٩ .

٢٢٦ - أنظر مثلاً «واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» سورة النساء آية ٥٨ وغيرها .

٢٢٧ - أنظر كذلك «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» سورة الحجرات آية ٦ .

٢٢٨ - المودودي في كتابه الحكومة الإسلامية ص ١٧٦ إلى ١٨٨ .

٢٢٩ - سورة النساء آية ٧٥ .

٢٣٠ - الإسلام في مفترق الطرق للمفكر الإسلامي محمد أسد .

٢٣١ - بتصرف من آراء في التربية الدينية للعلامة أبو الحسن الندوي .

٢٣٢ - مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة .

المصادر

(١) القرآن الكريم .
(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان – الامام محمد بن إبراهيم الوزير .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير .
(٤) أحكام القرآن للجصاص .
(٥) الروض النضير – شرح مسند الامام زيد للسياغي .
(٦) نهج البلاغة – أمير المؤمنين عليه السلام .
(٧) المصنف للامام عبد الرزاق بن همام الصنعاني .
(٨) صحيح الامام البخاري .
(٩) صحيح الامام مسلم .
(١٠) أمالي الامام أبي طالب .
(١١) صحيح ابن حبان .
(١٢) مسند الامام أحمد بن حنبل .
(١٣) مسند الطيالسي .
(١٤) مسند أبي داود .
(١٥) سنن النسائي .
(١٦) سنن الترمذي .
(١٧) سنن ابن ماجة .
(١٨) سنن أبي داود .
(١٩) سنن الدارمي .
(٢٠) منتخب سنن العمال .
(٢١) صحيح الجامع الصغير لناصر الدين الالباني .
(٢٢) المستدرك للامام الحاكم .
(٢٣) مجمع الزوائد للحافظ البيهقي .
(٢٤) المعجم الكبير للطبراني .
(٢٥) المعجم الأوسط للطبراني .

(٢٦) التلخيص للذهبي .
(٢٧) سنن سعيد بن منصور
(٢٨) نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية .
(٢٩) زاد المعاد في هدى خير العباد . للامام ابن القيّم .
(٣٠) فنون المغازي والشمائل والسير ، للحافظ بن سيد الناس .
(٣١) المواهب اللدنية . للزرقاني .
(٣٢) طبقات ابن سعد .
(٣٣) سيرة ابن هشام .
(٣٤) الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني .
(٣٥) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير .
(٣٦) تاريخ الطبري .
(٣٧) الاستيعاب ، لابن عبد البر .
(٣٨) تاريخ بن خلدون .
(٣٩) تاريخ الإسلام . الذهبي .
(٤٠) الكامل لابن الأثير .
(٤١) الديباج المضيء على كلام الوصي الامام يحيى بن حمزة ، مخطوط .
(٤٢) الارشاد ، القاسم بن محمد . مخطوط .
(٤٣) الاعلام ، خير الدين الزركلي .
(٤٤) النهاية لامام الحرمين .
(٤٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
(٤٦) العقد الفريد لأبن عبد ربه .
(٤٧) آفاق جزائرية ، مالك بن نبي .
(٤٨) شروط النهضة ، مالك بن نبي .
(٤٩) الخلافة والملك ، الامام المودودي .
(٥٠) الحكومة الإسلامية ، الامام المودودي .
(٥١) الشريعة الإسلامية وتحديات العصر ، وحيد الدين خان .
(٥٢) آراء في التربية الدينية ، الإمام أبو الحسن الندوي .
(٥٣) الحياة الاجتماعية عند العرب .
(٥٤) الإسلام في مفترق الطرق ، محمد أسد .
(٥٥) التفسير الإسلامي للتاريخ د. عماد الدين خليل .

رقم الايداع . ١٩٨٩١/٣٠٢٦
الترقيم الدولى . ٩ ـ ٣٦٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

